الإسراف

جرحٌ

في قلب المجتمع

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

اسطنبول ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٧م



إسطنبول: ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٧م

إسم الكتاب باللغة التركية: TOPLUMUN KALBİNDEKİ YARA– İSRAF

إسم الكتاب باللغة العربية: الإسراف جرحٌ في قلب المجتمع

الترجمة للعربية: حمدي قاسم أوغلي.

مراجعة وتصحيح وتدقيق: إياد عمار.

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٦٠٥٣٠٢٤٤٦٠

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:

Address : İkitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.org

Web site : www.islamicpublishing.org

الإسراف

جرحٌ

في قلب المجتمع

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم



مُقدّمة

الحمد لله خالق الأكوان، رب العالمين، مالك السموات والأرضين وحده؛ أحمده حمدًا لا منتهى له ولا حد، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان السرمديان على حبيبه ونور خلقه وخاتم رسله؛ نبي الرحمة؛ محمد المصطفى وعلى آله الطيبين وأصحابه المختارين، وبعد.

باتت تطالعنا في أرجاء عالمنا اليوم بكل جلاء ووضوح صور بشعة من استغلال المجتمعات الضعيفة بدافع من الفكر الرأسمالي والمادي والعلماني، ويتبدى لنا أكثر فأكثر تسابق المجتمعات المتقدمة في جنون الإسراف. فنرى القهقهات الغافلة والحياة العابثة في المجتمعات القوية تتغذى على عرق المجتمعات الضعيفة بل على دموعها ودمائها.

فكلما ابتعدت الإنسانية عن الحقائق الإلهية نأت عن الخصال الحميدة التي ارتقت بالإنسان حتى صار أشرف الخلق، من الضمير، والإنصاف، والإذعان،

والشفقة والرحمة والإيثار. والأمر الأدهى والأنكى من ذلك أن يلتحق بهؤلاء المغفلين بعض من يعدُّ نفسه من الملتزمين، فيخوض مع هؤلاء الخاضعين. فيسمي العامة هذه الطائفة من المسلمين بمُسْلِمي الزينة الذين ينهمكون في خطأ الترف والإسراف والتبذير والسعي وراء التظاهر والتفاخر رياء وعجبا، حتى باتوا لا يحسون بالمنكوبين، صم عن صراخ المفجوعين، عُمي عن رؤية مآسي المتألمين.

في حين يرشدنا الحق ﷻ في الآية ١٠٠ من سورة التوبة إلى أن نكون من الذين يتبعون المهاجرين والأنصار بإحسان. فيبين أنه ينبغي أن نتخذ هذا الجيل الفريد قدوة لنا وأسوة، فهم من تلقى التربية النبوية عن رسول الله ﷺ مباشرة وصُنعوا على عين الله سبحانه وتعالى.

ينبغي لنا إذًا أن نفكر؛ " كيف كانت نظرة الصحابة الكرام إلى العالم وكيف نظرتنا نحن ". فقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ينظرون إلى هذا العالم على أنه مرحلة عابرة وأن العيش الحقيقي إنما هو عيش الآخرة، ويعدون القبر آخرَ ما يصلون إليه من المنازل

في هذه الدنيا، فعاشوا بهذا الوعي. ولذلك ما كانوا يعرفون حياة الترف والتبذير والشراهة والبخل. وربما كانوا في ضيق شديد من الناحية المادية ولكنهم كانوا أسعد مجتمع عرفهم التاريخ بعصر السعادة. لأنهم كانوا مؤمنين قد ذاقوا اللذة غير المتناهية لنعمة الإيمان والإسلام ووصلوا إلى غنى القلب بالقناعة والرضاء، وأدركوا بحق فناء هذه الحياة الدنيا وبقاء الدار العقبى، وصارت الخصال الحميدة للخلق المسلم طبائع أصيلة فيهم مثل القناعة والرضا والتضحية والصبر والإيثار والشفقة والرحمة والإنفاق في الضراء والسراء، ففازوا بسعادة الدنيا والأخرى.

ومن المؤسف حقًا أن يقيس المسلمون في مجتمعاتنا اليوم حالهم بحال أولئك الذين أنساهم التقليد الأعمى هويتهم وأسكرتهم الغفلة عن آخرتهم، بدلًا من أن يتخذوا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين تربوا في كنفه قدوة وأسوة لهم.

لأن هذا الأمر يهبط بالقلوب من كونها محط نظر الحق سبحانه إلى أن تصبح مستنقات الأهواء الدنيوية

ورذائلها، وتضمر فيها معاني الإنسانية والرحمة. فينعدم إحساس المرء ببؤس إخوته في الدين ولا يكاد يبذل من التضحية في سبيل خدمتهم قليلا ولا كثيرا. وهذا يعني إسراف النعم كلها وعلى رأسها نعمة الإيمان والإسلام، وإفلاس السعادة الأبدية.

والإسراف؛ هو عبارة عن محاولة الشخص بناء اعتباره الشخصي وتلافي شعوره بالنقص من خلال تفاخره وتكثره من المظاهر المادية. ولكن هذا هو المعنى المحدود المتبادر إلى الذهن حين يذكر الإسراف. وأما في الحقيقة فإن الإسراف يعني تجاوز الحق وتعدي حدود شرع الله سبحانه وتعالى في جميع الأمور. فالإسراف لا يتعلق بالموارد المالية فحسب. بل الإسراف نمط سلوك، ووجهة نظر، وشعور قلبي وطريقة للحياة تنعكس باضطراب السلوك في جميع مراحل الحياة. ومن هذا المنطلق فإن أخطر أنواع الاسراف يكمن فيما يتعلق بالحياة القلبية والمعنوية. ولا يخفى على ذي بصيرة أن الإسراف في الموارد المالية إنما ينشأ من الإسراف في الأمور المعنوية.

وقد تناولنا في كتيبنا الصغير هذا معنى الإسراف بمحيطه الواسع، ولم نقتصر على المعنى الضيق للإسراف، والذي يعني الإسراف فيما يتعلق بالمال أو الثروة فحسب. وحاولنا أن نشير إلى معنى الإسراف في الإيمان، والعقيدة، والعبادات أولًا ثم الإسراف في الوقت، والعلم، والقيم الأخلاقية والتفكر وطلب المعيشة وفي الإنفاق والصحة وفي الأكل والشرب.

وهذه الأمور التي ذكرناها هي مجالات الإسراف الأساسية. وفي الحقيقة يعتبر كل خروج عن أمر الله سبحانه وتعالى إسرافًا أيًّا كان مجاله. فالملك والمال في الإسلام لله سبحانه وتعالى.

ولذلك يعتبر المال أمانة في يد الإنسان وهو إذا تصرف فيه بما لا يرضى الله سبحانه تبذيرا وتقتيرا فقد ارتكب حرامًا. وهكذا إفناء نعمة العمر في المتاهات الخاطئة وأداء العبادات خالية عن الإخلاص والخشوع يعتبر من أدهى أنماط الإسراف.

وقد تناولنا موضوع الإسراف بهذه النظرة، وأخذنا سلسلة مقالاتنا التي نشرت في مجلتنا ألتين أولوق تحت

عنوان "الإسراف" والتي أدرجناها في تأليفنا "أويله بير رحمت كه" ونصوغها مرة أخرى مع القضايا المعاصرة المتعلقة بالأمر ونفردها بتأليف مستقل نظرًا لمتقضيات الأمور وتلبية للطلبات الملحة؛ ونقدمها إليكم قراءنا الأعزاء بهذا الثوب الجديد.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل نياتنا وأعمالنا وشعورنا وأفكارنا متناغمة مع ما يرضيه سبحانه وتعالى. وأن يقينا مواضع غضب الله سبحانه، وأن يوفقنا للأحوال الحسنة والأعمال الصالحة التي يرضاها عنا. آمين.[١]

عثمان نوري طوباش

يناير ٢٠١٧

اسطنبول/ أوسكودار

١ أقدم شكري إلى محمد عاكف كوناي لما بذله من جهد في إعداد هذا الكتيب سائلاً المولى جل سلطانه أن يقبل جهده هذا صدقة جارية له.

الإسراف

في الإيمان ، والعقيدة ، والعبادة

كلمة الإسراف وإن كانت تستخدم غالبًا فيما يتعلق بالموارد المالية ومصادر الثروة ، إلا أن هذا المعنى المتبادر إلى الذهن إنما هو المعنى الضيق المحدود. وأما في الحقيقة فللإسراف معانٍ واسعة تشمل كل ما تجاوز الإنسان حدوده وتعداه . فعلى هذا يعتبر خروج العبد عن حدود الشرع التي بينها الله تعالى أيًا كان موضوعها إسرافًا أي إهدارًا للنعمة وتضييعها فيما لا طائل وراءه .



الإسراف

في الإيمان، والعقيدة، والعبادة

إن ما أنعمه الله ﷻ على عباده من جميع النعم ما ظهر منها وما بطن إنما يدل دلالة جلية على رحمته وشفقته ومحبته لخلقه. وقد أحسن إليهم بهذه النعم مجانًا دون بدل يدفعونه أو تعب يكدحونه. ويقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]

ولكن لا يُسمح للإنسان أن يستخدم هذه النعم وفق هواه دون قيد أو شرط. فالآية الأخرى توضح ذلك:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[3]

---

٢ الجاثية، ١٣.

٣ القيامة ، ٣٦.

وعلى هذا يجب على الإنسان حين يتصرف في هذه النعم التي أنعم الله بها عليه أن يراعي ميزان الشرع فيما يأمره الله ﷻ وينهاه. فعلينا أن لا ننسى أنه سيكون للحلال حساب وللحرام عقاب. فكما يجب علينا أن نبتعد عمَّا حرمه الله فيجب علينا كذلك أن لا نقع في الإسراف فيما بين أيدينا من نعم الله فذلك حرام أيضًا. لأن الإسراف الذي هو عبارة عن تعدي الحدود الشرعية وعدم اعتبارها يعد أيضًا نكرانًا عظيمًا للجميل الذي يتفضل به الحق سبحانه وتعالى من إنعامه وإكرامه.

فكلمة الإسراف وإن كانت تُستخدم غالبًا فيما يتعلق بالموارد المالية ومصادر الثروة إلا أن هذا المعنى المتبادر إلى الذهن هو المعنى الضيق المحدود. وفي الحقيقة للإسراف معانٍ واسعة تشمل كل ما تجاوز الإنسان حدوده وتعداه. فعلى هذا يعتبر خروج العبد عن حدود الشرع التي بينها الله تعالى أيًا كان موضوعها إسرافًا أي إهدارًا للنعمة وتضييعها فيما لا طائل وراءه.

وقد قال إياس رضي الله عنه:

"ما جاوزتَ به أمر الله فهو سرَف وإسراف".

ويميل الإنسان دائمًا بسبب الأنانية التي طُبع عليها إلى تبرئة أخطائه مهما عظمت. حتى الذين ارتكبوا جرائم جسيمة كالقتل يحاولون أن يظهروا أنفسهم أبرياء متخفين وراء بعض الذرائع والأعذار. وإن كان القتلة يرون براءة أنفسهم فالمبذرون والمقترون بطريق أولى يقعون في ضلال الإعجاب بحالهم. ولا يستطيعون أن يفلتوا غالبًا من رؤية هذه الغفلة -المتمثلة في جنون الإسراف وسفالة البخل- سعادة. ولذلك ينبغي علينا أولًا أن نصحح مفهوم "**الإسراف**" المبهم بما يوافق النصوص الإليهة على نحو قويم.

وكما أن الإسراف في الموارد المادية مذموم في ديننا فكذلك التبذير الأهوج والسلوك المنفلت عن الحدود الطبيعية في المعاني المعنوية القيمة مثل العقيدة، والعبادة، والعلم، والأخلاق، والوقت، والعقل ممنوع أيضًا، حتى اعتبر التجاوز عن الحد في مثل هذه الأمور ضياعًا أكثر خطرًا. لأنه بسبب هذا السلوك تضيع السعادة الأبدية بالغفلة وتتبدد من أجل الملذات الدنيوية المتقلبة.

فربنا سبحانه وتعالى يأمرنا بالاعتدال ويمنعنا من الإسراف والتقتير في حياتنا اليومية في كل شيء بدءًا من حاجاتنا الأساسية مثل الأكل والشرب واللباس وصولًا إلى قيمنا المعنوية. فعلى المؤمنين جميعًا أن يعيشوا حياة متزنة بين هاتين النقطتين المتضادتين. لأن البشر لا يستطيعون أن يحترزوا من الوقوع في علة التبذير أو التقتير إذا لم يراعوا الحدود الشرعية في استخدام جميع النعم المادية والمعنوية.

ويمكننا تلخيص بعض أهم أشكال الإسراف التي من شأنها أن تؤدي إلى كارثة خسارتنا في الدنيا والآخرة، وسبل التخلص منها على النحو التالي:

أ. الإسراف في الإيمان والعقيدة:

وهذا أقبح أنواع السرف وأشنعها. فهو إضاعة السعادة الأبدية عن طريق تشويه صفاء "الفطرة الإسلامية" المكنونة في الإنسان من خلال تضييع كرامة العقل وسلامة القلب بالانجراف وراء الأباطيل والأساطير والخرافات والأفكار السامة المشوهة.

فضعف الإيمان كارثة معنوية تنتج غالبًا عن الألفة بالفاسقين. ويحذرنا ربنا ﷻ من أن نقع في مثل هذه الكارثة:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[4]

لأن مد جسور الصداقة مع الفاسقين والتقارب الفكري معهم يؤدي مع مرور الزمن إلى المودة القلبية لهم، فيتسبب عنه ضعف الإيمان حتى يصل بصاحبه – عياذًا بالله تعالى – إلى هلاك حياته الأبدية. ويذكر سبحانه الأسباب الرئيسية لإسراف الإيمان وضياعه في الآيات:

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[5]

---

٤ الأنعام، ٦٨.

٥ المدثر، ٤٠-٤٦.

ويبين لنا ربنا الطريق حتى لا نقع في هذه العاقبة الأليمة في الأية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[6]

وفي آية أخرى يأتي التعبير عن ضرورة التعمق في الشعور حين النظر إلى آيات الله سبحانه وتعالى، يعني أوامره ونواهيه بدل النظر بغفلة، حيث يقول الله ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْيانًا﴾[7]

وبهذا المنظور فإن أولئك الذين يستخدمون ملكات إدراكهم القلبي خارج مقصد الخلق دون أن يكترثوا بآيات الله ﷻ، فقد سقطوا في الإسراف الشعوري بسبب غيبوبة مشاعرهم عن مشاهدة الحقائق. فالآية تذكر لنا العاقبة الأليمة للإسراف:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[8]

---

٦ التوبة، ١١٩.

٧ الفرقان، ٧٣.

٨ غافر، ٢٨.

وهناك انحرافات في العقيدة وعدم التزام بالمعايير الشرعية. ومن بين هذه الانحرافات الأخطر طلب قضاء الحاجات عند زيارة قبور الصالحين منهم مباشرة. بينما ينبغي للمرء أن يدعو الله سبحانه وتعالى بحرمتهم وأن يتفكر بأعمالهم الصالحة ومقاماتهم العالية عند الله ﷻ.

ومع ذلك، فمن العقيدة الباطلة أيضا الاعتقاد بأن "هؤلاء الناس سيشفعون لي"معتمدًا على "**شفاعة**" الصالحين دون قيد أو شرط. لأنه كما ورد في الآية الكريمة:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[9]

ومن العقيدة الباطلة أيضا الاعتقاد بأن الصالحين يطَّلعون على ما يجري في القلوب. فهم يمكنهم أن يعرفوا ما قد كشفه الله لهم فقط. فحتى الأنبياء لا يستطيعون معرفة كل شيء.

وكان النبي ﷺ حينما يُسأل بعض الأسئلة يقول:

"**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**" [10]

---

9 طه، ١٠٩.

10 مسلم، الإيمان، ٩-١٠.

في الواقع، في حادثة الإفك تأخر نزول الوحي على رسول الله ﷺ شهرًا دون أن يستطع النبي ﷺ معرفة أي شيء عن حقيقة الأمر.

وقد تأخر نزول الوحي أيضًا عن الأشخاص الثلاثة المتخلفين عن غزوة تبوك بسبب الإهمال والغفلة خمسين يومًا.

وكان قد توفي الصحابي الجليل عثمان بن مظعون في المدينة المنورة في بيت امرأة من الأنصار تدعى أم العلاء، فقالت هذه المرأة:

"رحمة الله عليك أبا السائب (تعني عثمان بن مظعون)، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: **وما يدريكِ أن الله أكرمه؟** فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟. فقال رسول الله ﷺ: **أما هو فوالله لقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، ووالله ما أدري وأنا رسول الله ماذا يُفعل بي.** فقالت: والله لا أزكي بعده أحدا أبدا ". [11]

١١ البخاري، التعبير، ٢٧.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١٢]

سأل أحدهم نبي الله سيدنا يعقوب عليه السلام فقال:

"يا أيها النبي الحكيم، وصاحب القلب المنور! لماذا لم ترَ يوسف حينما ألقي في البئر وقد كان بجوارك، بينما وجدت رائحة قميصه وقد كان بعيدا عنك في مصر؟".

فيجيبه سيدنا يعقوب عليه السلام بقوله:

"حظنا الذي يصيبنا في مثل هذه الأمور مثل البرق اللامع؛ في بعض الأحيان ينكشف لنا البعيد وأحيانا يُحجب دوننا القريب..".

ومن جملة الإسرافات المذمومة أيضًا ما يقوم به بعض الناس تجاه بعضهم من المجاملات العشوائية الغافلة. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

١٢ الأحقاف، ٩.

"من كان منكم مادحا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانا، والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه" [١٣]

ويتوقف كمال الإيمان على كمال العقل المنضبط بالوحي، ولا يكتمل العقل إلا بنور الإيمان المكنون فيه، أي إنه يتوقف على نضج القلب. فالعقيدة الباطلة والأفكار الضالة التائهة عن الأنوار الإلهية والمشوهة بالخرافات والأساطير شبيهة بالشموع العجاف أو المصابيح الباهتة. فهكذا يتدمر العقل المحروم من مراقبة الوحي الإلهي أيضًا كما يهلك المصباح الذي يسحب الكهرباء دون حساب وقدر يومًا من الأيام.

ب. الإسراف في العبادات:

يجب علينا أداء العبادات والمعاملات على أكمل وجه آخذين بمبدأ الاعتدال حتى نستشعر روحها وفيضها المستمر.

١٣ البخاري، الشهادات، ١٦.

فأول إسراف يتبادر إلى الذهن أثناء أداء العبادات صرف المياه أكثر من اللازم في الوضوء والغسل نتيجة الوسوسة.

وقد روي عن عبد اللَّه بن عمرو بن الْعاصِ رضي الله عنهما

"أَنّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِسَعدٍ وهوَ يَتوضّأ: فقال: **ما هذا السرف يا سعد؟** قال: أفي الوضوء سرف؟ قَالَ: **نعم، وإن كنت على نهر جار**" [14]

ومن السرف في حياة العبادات أيضًا عدم أداء الصلاة بالجماعة مع الإمكان، والقيام بها ساهيًا بعيدًا عن الخشوع من قبيل أداء الواجب فحسب. فيقول الله سبحانه وتعالى عن المصلين الذين يقومون إلى الصلاة وهم كسالى من غير خشوع ولا خضوع:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [15]

ويقول النبي ﷺ عن الصلاة التي ضيعت فضيلتها بسبب العلل القلبية، والصلاة التي أسرفت بتفريغها من

---

١٤ ابن ماجه، الطهارة، ٤٨.

١٥ الماعون، ٤-٥.

روحها؛ فيما يروي عنه عمار بن ياسر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ، مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلاَّ عُشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا" [١٦]

وكل هذه النصوص تدل دلالة واضحة على أن الله سبحانه وتعالى يريد منا عبادة روحية تجمع بين العقل والقلب، حيث يأمرنا بقوله: ﴿**واسجد واقترب**﴾[١٧] أن نسجد بين يديه بقلب أواه متضرع، خاشع متبتل، لأن الذي يرفع الإنسان إلى كمال الإيمان الحقيقي تناغم أعمال القلب والعقل معا.

ورد في الآية الكريمة مدح المصلين الذين يؤدون صلاتهم كما ينبغي:

﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[١٨]

---

١٦ أبو داود، الصلاة، ١٢٣-١٢٤.

١٧ العلق، ١٩.

١٨ المؤمنون، ١-٢.

ومن السرف أيضًا أن ينتقص مِن أجر الصوم الذي هو أحد أركان الإسلام الخمسة إلى الحد الأصغر، بسبب الضعف الأخلاقي كالكذب والغيبة والنميمة وغيرها.

وفي ذلك يروى عن أبي هريرة ﵁ أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

"من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه" [١٩]

فينبغي لنا حين نؤدي فريضة الصيام أن نستشعر من خلال أدائها عظم نعم الله تعالى التي أحسن بها علينا. ويجب أن يذكرنا صيامنا بعجزنا وضعفنا من خلال الالتياع بسياط الجوع ردحا من الزمن، لعلنا نتفهم حال إخواننا الذين تقصر أيديهم عن بلوغ مرادات نفوسهم، ويرشدنا إلى أن نمد إليهم يد العون بقلوبنا وأن ننفق عليهم الصدقات برغبة العبادة متواضعين وشاكرين لقبولهم كأننا نقدمها لرب العزة والجلال. إذ تقول الآية في ذلك:

---

١٩ البخاري، الصوم، ٨، الأدب، ٥١.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [٢٠]

شهر رمضان الذي كتب فيه الصيام علينا شهر عبادة مفعم بالفيوضات والمعنويات والرحمة والمغفرة والألطاف الإلهية.

وقد أمرنا سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن نُحيي هذا الشهر بأعمال مباركة وعبادات حاضرة دون أن نسرف فيه.

ومع ذلك ينبغي لنا أن نحيي أوقات السحر من هذا الشهر المبارك؛ فنؤدي صلاة التهجد بقلب يقظ وذكر دائم، مع الاستغفار والتفكر وتلاوة القرآن، وأن نمضي أوقات النهار منه بأداء العبادات؛ بقلوب متوجهة إلى الحق سبحانه وتعالى والإنفاق والأعمال الصالحات، وأن نعيش أوقات الإفطار التي هي ساعات الإجابة؛ بالاستغفار والدعاء وسكينة القلب التي تتولد من مشاركة وجبة الإفطار لمؤمن، وإيقاظ ظلمات الليل منه؛ بأداء

٢٠ التوبة، ١٠٤.

صلاة التراويح التي تؤدى بتعديل الأركان والطمأنينة التامة. أما إذا لم نقم بإحياء هذا الشهر المبارك كما ينبغي فسنكون من الذين فوتوا بحار المغفرة والرحمة الجارية بجوارهم، ومن المحرومين منه في دوامة الإسراف الحزينة.

ومن السرف في العبادات أيضًا الإسراف في عبادة الحج إذا لم يكن الحاج قد كسب ماله من حلال وأدى الحقوق الواجبة عليه للناس، بل على العكس قام بما يبعد عنه روحانية الحج وفيضه، حيث شغل نفسه بما لا يعنيه وأخل بحجه.

فقد ورد في الحديث أن من حج بمال حرام حين يقول:

"لبيك، اللهم لبيك"،

يناديه مناد من السماء:

"لا لبيك ولا سعديك، كسبك حرام، وزادك حرام، فارجع مأزورا غير مأجور، وأبشر بما يسوؤك" [٢١]

٢١ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣/ ٢٠٩-٢١٠.

وأما السرف في الزكاة والصدقات فيكون في إفسادها بالمنِّ على الفقير المحتاج وإيذائه بالقول، وإضاعة أجرها بأمراض قلبية مثل الرياء والعجب. فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [٢٢]

فعلى المؤمن أن يسعى بشكل حثيث لإخراج الزكاة إلى أهلها المستحقين. لأن الله سبحانه وتعالى يمدح عباده الذين يجتهدون في أداء الزكاة ويقول فيهم:

٢٢ البقرة، ٢٦٣-٢٦٤.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [٢٣]

فإعطاء الزكاة والصدقات إلى أهلها المستحقين نعمة كبيرة جدًا. وبذلك يأمرنا الله سبحانه وتعالى ويطلب منا البحث عن المستحقين بشكل جاد لنكسب ملكة نقتدر من خلالها على معرفة المحتاجين بسيماهم. [٢٤]

وفي الحقيقة إن إعطاء المال إلى أهله المستحقين يتوقف على أي طريق كسبناه. وبعبارة أخرى فإن مصارف زكاتنا وصدقاتنا وتبرعاتنا تعتبر بمثابة المرآة التي تظهر لنا مدى حِلِّ كسبنا.

ومن الإسراف أيضًا عدم الاهتمام بقراءة القرآن الذي هو النعمة الكبرى والخزينة الإلهية القيمة كما يليق به والعمل لأجل فهم معانيه، وعدم المبالاة بأوامره ونواهيه. يبين لنا الحق سبحانه الذين وقعوا في الإسراف بحق القرآن، والذين قاموا بحقه واستفادوا منه كما ينبغي، حيث يقول عز شأنه:

---

٢٣ المؤمنون، ٤.

٢٤ أنظر: البقرة، ٢٧٣ .

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٢٥]

وكما أن أفضل الأمم أمة محمد ﷺ فإن أفضلهم من قرأ القرآن وحفظه عن ظهر قلب وتعلم مضمونه وعمل بأحكامه من المؤمنين. فمن الناس من يظلم نفسه؛ فلا يتلوالقرآن حق تلاوته بالرغم من تعلمه، ولا يعمل بموجبه فتضيع عليه أكبر النعم. ومن الناس من يقتصد؛ حينًا يعمل بالقران وحينًا يهمل. ومن الناس من يسبق بالخيرات بإذن الله.

فالقرآن الكريم هو لسان الأرض والسماء، وخزينة البركات والمعنويات للفؤاد. وهو معجزة البيان المهداة للبشرية.

فقلوب المؤمنين التي تلتقي بالقرآن تكون مظاهر التجلي الفريدة لخالق الكون سبحانه وتعالى. من يعش

٢٥ فاطر، ٣٢.

من الناس بالقرآن يعش سعادة وراحة من صار عالمًا صغيرًا وقد انطوى فيه هذا الكون المعظم والرائع أي العالم الأكبر. القرآن الكريم باب رائع ينفتح إلى أعماق عالم التفكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فكما أن الطهارة البدنية شرط لقراءة القرآن الكريم فإن الطهارة القلبية ركن من أركانه الضرورية أيضًا. لأن الأمراض القلبية تحجب الإنسان عن التأثر بالقرآن الكريم على النحو الصحيح. ومن لم يلتق برحمة القرآن الكريم وشفائه وهديه فقد خسر خسرانًا مبينًا. وإنما يدرك معاني القرآن الكريم بشكل أفضل من يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالتقوى لأن القرآن الكريم يبين مراد الله سبحانه وتعالى. وذلك للاستفادة من نعم القرآن وللفوز بالسعادة في الدارين، فالتقوى شرط ضروري لا بد منه.

ومن الأمور الهامة التي يجب الانتباه لها أن خدمة بسيطة توافق رضى الله تعالى أفضل من كثير من العبادات النافلة.

فهذا المثال الذي وقع في عصر السعادة يوضح هذه الحقيقة أحسن إيضاح:

روي عن أنس ﷺ قال:

كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام في السفر فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلا في يوم حار أكثرنا ظلا صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

"ذهب المفطرون اليوم بالأجر" [٢٦]

ومن الإسراف أيضًا أن يشتغل شخص بعمل من الدرجة الثانية أو الثالثة ويهمل كسب رزقه، فيوقع من حوله ممن يعولهم في ضيق وشدة.

ومن ناحية أخرى فإن الإطالة ورفع الصوت بالكلمات المسجعة عند الدعاء، الذي يرفع في الجماعات الحاشدة إظهارًا للفن والمهارة، بما يسبب

٢٦ مسلم، الصوم، ١٠٠-١٠١.

فقد الهيجان لدى الجماعة، هو أيضًا إضاعة لجوهر العبادة. فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

"أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم" [27]

وبهذا قد منع رفع الصوت بالدعاء والاعتداء فيه. ومثل هذا الإسراف قد يخل بفيض وروحانية العبادات ويجرحها.

وفي حديث آخر يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

"إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء" [28]

وختامًا فإن الله سبحانه وتعالى لايريد منا أن نتعبده بشكل آلي، أعني دون فيض وروحانية، فتضيع بذلك الأعمال التي أُدِّيت من غير خضوع وخشوع. بل على العكس يريد منا أن نتقرب إليه بقلوب ملؤها الإحسان والفيض والروحانية حتى ننال بذلك شرف الوصل إليه.

---

٢٧ البخاري، الجهاد، ١٣١؛ مسلم ، الذكر، ٤٤.

٢٨ أبو داود، الطهارة، ٤٥.

ربنا احفظنا من الإهمال ومن الوقوع في الإسراف متجاوزين الحدود ولا سيما فيما يتعلق بالإيمان والعقيدة والعبادة. ويسر لنا العيش بنشوة وحماس الإيمان الكامل، وبلذة وطمأنينة العبادة الصالحة، وتقبلها منا. آمين !.

الإسراف

في الوقت

الحياة نعمة ثمينة للغاية أنعم الله سبحانه وتعالى بها على كل ذي كبد رطبة لاستخدامها مرة واحدة ولمدة محدودة جدًا . فمن الضروري إذًا قضاء الوقت في أعمال تناسب قيمته. لأن الوقت لا يمكن اقتراضه ولا إقراضه، فمن الممكن شراء كل شيء ولكن الوقت الذي مضى لا يمكن شراؤه أو تعويضه أبدًا .



الإسراف في الوقت

إن جميع النعم التي يتنعم بها ابن آدم كسبا كانت أو هبةً إنما هي في الحقيقة نِعم قد منَّ الله تعالى بها. لأنه هو سبحانه مَن أوجد النعم من عدم، ومنح عبده الاستعدادات والإمكانات لكسب ما يحتاجه من هذه النعم. ولذلك على الإنسان أن لا ينسى أن النعم التي يملكها هي من محض لطف الله ﷻ. وعليه أن يعيش مدركًا تمام الإدارك أن هذه النعم أمانات سوف يُحاسَب عليها في يوم ما. فإن الآية الكريمة تذكرنا بذلك:

﴿اَفَحَسِبْتُمْ اَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَاَنَّكُمْ اِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [٢٩]

وعلى هذا يجب علينا أن نتذكر دائمًا أننا لم نُترَك مختارين تمامًا في تصرفنا في كل ما نملكه من النعم مادية كانت أو معنوية، بل نحن مأمورون أن نتصرف فيها بما يوافق مرضاة ربنا سبحانه وتعالى.

---

٢٩ المؤمنون، ١١٥.

وفي آية أخرى يذكرنا ربنا بالحساب الأكبر، ويؤكد على مسؤليتنا العظيمة، حيث يقول جلت قدرته:

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [٣٠]

وهذا كله يدل على أن الله سبحانه وتعالى، كما وضع لنا معايير ثابتة تحدد طرق اكتساب النعم، فإنه وضع لنا أيضًا حدودًا يجب الالتزام بها في صرف هذه النعم. وبيَّن هذه الحدود بأنها "المحرمات والمباحات". فالإسراف إذًا من المحرمات التي تحرمنا من رحمة الله سبحانه وتعالى ومحبته، بل إنها مدعاة لسخط الله سبحانه واستجلاب غضبه والعياذ بالله.

فإن الله تعالى يقول في الآية الكريمة:

﴿وَلَا تُسْرِفُوا اِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٣١]

---

٣٠ التكاثر، ٨.

٣١ الأنعام، ١٤١.

الإسراف في الوقت:

ومن الأخطاء التي كثيرًا ما يقع فيها بنو البشر هدر الوقت بسبب الغفلة والنسيان.

فالحياة نعمة ثمينة للغاية أنعم الله ﷻ بها على كل ذي كبد لاستخدامها مرة واحدة ولمدة محدودة جدًا. فمن الضروري إذًا قضاء الوقت في أعمال تناسب قيمته وتليق بجلال هذه النعمة العظيمة. ففي الحياة أعمال كثيرة يمكن القيام بها في أي وقت، بينما ثمة أعمال لا تؤخر عن وقتها أبدًا. ولذلك يجب ترتيب الأعمال حسب أولوياتها ثم تقديم الأهم منها على غيره والقيام به على أكمل وجه،. فهذا من المبادئ المهمة في موضوع صرف الوقت بما يناسب قيمته. فعلى سبيل المثال إرضاع الأم رضيعها هو عمل جميل ينبعث من الرحمة والشفقة، إلا أنها إذا استمرت في إرضاع رضيعها عندما يشب حريق في المنزل فإن عملها هذا ضربٌ من الحماقة، وسيكون وبالًا عليها. لأن واجب الوقت في تلك اللحظة إنما هو تناول دلو من ماء لإطفاء الحريق. فإن هذه المهمة أكثر حيوية وأهمية من الأخرى. فإذا

استمرت في إهمالها هذا فإنها ستهلك هي وابنها في تلك النار بعد حين.

ومما يقاس على ذلك، ما يجب علينا معاشر المسلمين أن نقوم به من واجب الدعوة ونشر الدين لأننا مسؤولون عن أداء هذه الأمانة لكل شعوب الأرض. فإن هذه المهمة الجليلة هي واجب الوقت في هذا العصر، ولا عمل أعظم أن يصرف الوقت فيه من هذا العمل.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يصرفون أوقاتهم الثمينة بأجمل طريقة، فقد كانت أجمل ساعات أعمارهم وأجلها شأنًا هي الأوقات التي يبلغون فيها رسالة التوحيد للناس. فبينما كان أحد الصحابة على وشك أن يُعدم طلب من جلاديه أن يسمحوا له بالصلاة، فحينما أعطي هذه الدقائق شكرهم وأخذ ينصحهم لعلم يهتدون.

وفي وقتنا الحاضر نلاحظ أن بعض الناس يضيع، فيتيه في صحارى الضلال والانحلال، فيجب علينا أن نقترب منهم بلسان عذب ولين لننقل إليهم جمال الإسلام ورحمته وشفقته، وهذا واجب ودين على كل مسلم.

وإن هدر الوقت الذي هو أهم ما نملك في أمور تافهة وفارغة لا يضيع دنيانا فحسب، بل يعرض آخرتنا للخطر أيضًا. فلذلك نرى الذين هتكوا ستار الغفلة يعتبرون الوقت نعمة لا تقدر بثمن. فالله ﷻ يقول:

﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٣٢]

ففي هذه السورة التي تفتتح بالقسم بالوقت بيانٌ أن الأوقات التي لم تعمر بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر أوقات مهدورة وأنها سبب للخسران. وفي هذه السورة نلاحظ أيضًا أن الذين يعرفون قيمة الزمن هم القلة القليلة ولذلك أشير إليهم بأداة الاستثناء وأما الغالبية العظمى فهم في خسران وهذه حقيقة مؤلمة.

يوصي الله ﷻ عباده ليتخلصوا من الخسران في تصريف الوقت، ولينالوا إكرام الله ﷻ بهذه التوصيات الآتية:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [٣٣]

---

٣٢ العصر، ١-٣.

٣٣ الانشراح، ٧-٨.

يعني إذا انتهت عبادة ما فإنه يجب السعي إلى عبادة أو خير آخر حتى لا يمضي وقت دون عبادة أو سعي نحو الخير. لأننا أعطينا الحياة كنعمة نكتسب من خلالها السعادة الأخروية. فالموت هو مثل تاريخ الدفع، يظهر وقت تنفيذ الدين.

فالتاجر يعطي لمدينه سندا ليستعد لسداد ما عليه من دين. فالأجل المكتوب هنا في هذا السند لأجل إعداد المبلغ الواجب دفعه خلال تلك الفترة. وهكذا أعطينا الحياة الدنيا كأجل نكتسب من خلاله حياتنا الأخروية، ونحصل على المرضاة الإلهية.

فكما أن التاجر الذي لا يولي أهمية للمدة المحددة له يقع في حرج إذا حضر الأجل، فكذلك لا يفلح ابن آدم من الوقوع في الخسارة إذا لم يقم بالاستفادة من الأجل الذي قضاه الله له بحق. لأن كل إنسان محكوم عليه منذ ولادته بالموت الذي يجهل وقت تحققه. ووقت تنفيذ هذا الحكم هي اللحظة التي سيواجه فيها الإنسان ملك الموت عزرائيل. غير أن الأجل معلوم في سندات الديون فهنا في أجل الإنسان بقيت نهايته مجهولة. وهذه

حقيقة رهيبة مرعبة تتطلب منا أن نكون جاهزين دائما في جميع الأوقات للمساءلة.

مبدأ "**الوقوف الزماني**" الذي هو واحد من أهم قواعد التربية الصوفية يعني ضرورة استخدام نعمة الزمان بدقة شديدة. فعلى هذا يلزم لكل مؤمن غيور على دينه، يريد تزكية نفسه وتصفية قلبه أن يعمر أوقاته بالأعمال الصالحة، وهو يدرك تمامًا أنه سوف يحاسب على كل أنفاسه، وأن نفسه الأخير مجهول بالنسبة له. فيجب عليه الامتناع عن المحادثات غير الضرورية عن طريق التخلي عن الأعمال التافهة، وبعبارة الإمام مولانا جلال الدين الرومي يجب على الإنسان أن يحفظ لسانه من أن تكون كلماته "سخيفة". لأن الله ﷻ يبين أحد أوصاف المؤمنين الذين قد تحققوا بـ"الفلاح" بتعبير قرآني:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [٣٤]

﴿...وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [٣٥]

---

٣٤ المؤمنون، ٣.

٣٥ الفرقان، ٧٢.

وهذه الآيات تدل على أن المؤمن الصالح عليه أن يراقب نفسه دائمًا من خلال ملاحظة مستواه القلبي، وهو بذلك خبير بما في عالمه الداخلي من حال الرضا والشكر والحمد والاستغفار. فعليه أن يستغفر الله ﷻ عن كل لحظة أهدرها بالغفلة، وعليه حين يتقلب في نعم الله التي لا تحصى أن يلاحظ تقصيره في شكره سبحانه على هذه النعم. فيبتعد عن الغفلة ويتخلص من المخاوف التي لا داعي لها من القلق وينبغي أن تكون مشغولة بإحياء وقته الذي هو فيه. وبعبارة أخرى عليه أن يكون "ابن الوقت"، أي يجب أن يكون مؤمنا كاملًا يعرف قيمة حياته، ولا سيما قيمة وقته الذي يحقق فيه أفعاله، والذي يستعد فيه بأفضل شكل لحياته الآخرة السرمدية الأبدية.

وتعد إضاعة الوقت من أعظم أسباب الندم، حيث روي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول اللّٰه ﷺ:

"لَم يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله – تعالى – فِيهَا " [٣٦]

٣٦ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ١٠، ص ٧٣-٧٤.

وهكذا يذكرنا النبي عليه الصلاة والسلام بأهمية صرف الأوقات في خير الأعمال التي نتخذها رأسمال لحياتنا الأخروية. لأنه لا ينفع الندم عندما تزول النعم، إذًا ما دامت الفرص بأيدينا يجب علينا أن نستثمر حياتنا بالأعمال الصالحة، حيث نحاول أداء شكر الأعضاء كلها بحقها. فعلى سبيل المثال يكون شكر نعمة اللسان بإحياء ذكر الله تعالى الذي هو شفاء لقلوبنا. وقد قال رسول الله ﷺ:

"لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي" [٣٧]

وينبهنا الله ﷻ لنولي اهتمامنا لهذين الأمرين فيقول:

﴿وَاَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَأْتِيَ اَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا اَخَّرْتَـني اِلٰى اَجَلٍ قَرِيبٍ فَاَصَّدَّقَ وَاَكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ﴾ [٣٨]

---

٣٧ الترمذي، الزهد، ٦٢/ ٢٤١١.

٣٨ المنافقون، ١٠.

كم تحتوي هذه الأية الكريمة من العبر وهي تجسد صرخات الذين أضاعوا حياتهم، وحسرتهم على رد معاذيرهم، وانقطاع أملهم من العودة إلى الحياة الدنيا مرة أخرى لعلهم يستدركون ما فاتهم، ولكن هيهات:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فيهَا رَبَّنَا اَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ اَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمينَ مِنْ نَصيرٍ﴾ [٣٩]

إن السبب الرئيسي لإضاعة نعمة الوقت كما هو الحال في جميع النعم، عدم إدراكنا لحقيقة الموت كما ينبغي، أو غفلتنا عنه، حيث نرى هذه الحقيقة الرهيبة بعيدة عن أنفسنا. بينما يقول النبي ﷺ فيما روي عنه أنه قال:

"أكثروا ذكر هاذم اللذات، يعني الموت" [٤٠]

بالرغم من هذا الإنذار النبوي فإن الغفلة المستمرة ستؤدي في يوم من الأيام إلى فصل عذاب محقق.

فقد نبه النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة فقال:

---

٣٩ فاطر، ٣٧.

٤٠ الترمذي، صفة القيامة، ٢٦.

"ما من أحد يموت إلا ندم"، قالوا: وما ندامته يا رسول الله، قال: **"إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع"** [41]

عندما ينظر الإنسان بنظرة قلبية إلى تدفق القوى الإلهية المعروضة في نفسه وفي المنظومة الكونية يشعر بالاضطرار إلى التفكير حول كيفية عيشه في هذا العالم. فعلى الإنسان أن يتفكر في حقيقة الموت كثيرًا لكونها الحقيقة الكبرى في هذه الحياة الدنيا. فما أعظمها من لحظة،لحظة الوداع الرائعة لهذه الحياة الفانية، وكم هي ملئية بعبر عظيمة لبني آدم. فمن يعرف حقيقة الموت لا ينخدع باللذات الفانية ومن يعرف أنه ذاهب إلى دار الآخرة لا تغريه زينة دار الضيافة أي الدنيا، فلا ينشغل بها ولا يضيع أوقاته في تحصيلها. يقول الله ﷿:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [42]

---

٤١ الترمذي، الزهد، ٥٩.

٤٢ الدخان، ٣٨-٣٩.

فماذا يستفيد شخص لو أعطي جميع هذه النعم الفانية وعاش حياة سعيدة مطمئنة ألف سنة؟ أوليس مصيره في النهاية إلى قعر الأرض السوداء التي نطؤها بأقدامنا؟ أفلا يعتبر الإنسان؛ أفلا يرى أن كل كائنٍ سيفنى لا محالة يوما، وستتلاشى طراوته وحيويته وجماله في باطن الأرض. ما أرهبها من خدعة أن ينخدع الإنسان الذي يعيش في عالم لا يعرف الآخرة على حساب مستقبله الأبدي، وأن يتخيل أن المدايح التي تغذي نفسانيته باقية، وأن لعب هذه الحياة الدنيا حقيقية !

كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

"هل من المعقول أن تبني القافلة أثناء السفر أبنية للإقامة!؟".

فمن حرم من التفكر بالآخرة، تستنفذه هذه الحياة بمتاعبها ومشاقها، وتحرمه من التمتع بالملاذات والمتع التي ستبقى في طي الماضي الراحل!.

فالذين يتعبون لأجل راحتهم الدنيوية وينساقون وراء اللذات الفانية وهم محرومون من التفكر في حياتهم الأخروية سوف يتحسرون على إسرافهم في نعمة العمر،

فيحزنون حزنًا عميقًا، ويتيهون في ضياع شديد. فكم يحزن الذين يعيشون كأنهم لا يموتون فيسرفون في أوقاتهم، فسيأتي على هؤلاء يوم يندمون فيه على كل لحظة أضاعوها ندامة كبيرة ويتحسرون عليها حسرة شديدة.

والذين يتبعون شهواتهم يفرون دائمًا من التفكر في القبر وما وراءه لأجل الإبقاء على حياتهم وفق المخططات النفسانية. وفي هذا الصدد، فإن القبر الذي يدخلون فيه يصبح مصدر قلق بالنسبة لمستقبلهم وكابوسا رهيبا لا مفر منه. لأن الناس كلهم يريدون أن يعيشوا في العالم الذي يحلمون به ويعشقونه. هل يعقل من شخص ذكي أن يترك قصرًا فخمًا ويقصد بيتًا خربًا؟ كلا ! ومع ذلك، فهناك كثير من الناس يخربون حياتهم الأخروية الأبدية لأجل إعمار دنياهم الفانية.

يبين لنا مولانا جلال الدين الرومي -رحمه الله- طريقة التخلص من أسر الدنيا وتحقيق السعادة الأبدية على النحو التالي:

"إذا لم تتعلق بالمال والملك كثيرًا يمكنك تركه بسهولة إن اقتضى الأمر! يمكنك أن تعطيه بسهولة

فتمضي من جانب ومن جانب آخر تكسب فيه ثوابًا! عليك أن تتعلق بشدة بمن أوجدك من عدم، فهو الأول والآخر".

"يخاف كثير من الناس من موت أبدانهم. بينما الذي يجب أن يخاف منه حقيقة هو موت القلوب".

لقد قدر لكل كائن حي نفس أخير أي أجل محتوم لا يمكن القضاء عليه، فلا يكتسب وقتا إضافيا على ما قدر لأجل البقاء في هذه الحياة الدنيا. فالزمن يجري كما هي سنة الله في الكون، ويستمر في التدفق على ما قدر له. فمن الممكن شراء كل شيء في الحياة الدنيا أو إرجاعه بشكل أو بأخر غير أن الوقت الذي مضى لا يمكن إرجاعه إطلاقًا... وإنه لمما يدمي القلب أنك لا ترى إنسانا تطاوعه نفسه أن يلقي قطعة من الذهب في القمامة وهو لا يكترث لذلك، بينما نرى كثيرا من الناس يرمى في قمامة الزمن أوقاتا قد تكون أثمن من ملايين القطع الذهبية، يلقيها دون أدنى اكتراث لذلك.

يقول فريد الدين العطار -رحمه الله- في نصائحه:

"أربعة أشياء لا يمكن استعادتها إذا ضاعت؛ كلمة خرجت من الفم، وسهم انطلق من القوس، وحادثة وقعت، وعمر قضي عبثًا ".

وقد كان أحد أولياء الله الصالحين يقول في بعض نصائحه لنا من أجل أن ندرك قمية الزمن حتى لا نغفل عن تقييمه، وأن نقوم بإعمار أيامنا كما ينبغي:

"قوموا أحيانًا بزيارة المستشفيات لعيادة المرضى لتحمدوا الله على أنه عافاكم وأدام عليكم نعمة الصحة ولم يبتليكم بما ابتلي به هؤلاء البؤساء!

زوروا السجون بين الحين والآخر لتتفكروا في حياة السجناء المليئة بألف عذاب وعذاب ! لتعلموا أن هؤلاء السجناء كثير منهم ارتكب جريمته نتيجة غفلة في لحظة واحدة، وأن آخرين منهم اعتقلوا ظلمًا وبهتانًا ويتحملون أنواعًا من المعاناة والاضطهاد فاعتبر منهم وضع نفسك مكانهم! لتحمد الله تعالى وتشكره على أنه حفظك من أن تكون في مقامهم! ولا تنس أن تدعو لهم ولسلامتهم ونجاتهم مما هم فيه!.

ثم اذهب إلى مقبرة فاستمع إلى لسان حالها، وحاول أن تصغي إلى ذلك الصراخ الصامت المتصاعد من شواهد القبور هناك. لتعلم قيمة وقتك لأنه إذا ضاعت نعمة العمر فلا يجديك التحسر عليها!. واقرأ الفاتحة على أرواح سكان المقبرة وقم بالحمد والشكر والذكر فيما تبقى لك من العمر واغتنم هذه الفرصة جيدًا!".

هذا إن دل فإنما يدل على أن المؤمن يجب عليه أن يسعى ليعيش حياة لا ينسى فيها ذكر الحق سبحانه أيًا كان مكانه أو زمانه، حيث يقول الله ﷻ:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٤٣]

بعد أن أخبرنا أبو عبدالرحمن السلمي عن أن تضييع الوقت وملازمة أهل الدنيا من أخطر عيوب النفس يعطينا وصفة لمعالجة هذه المشكلة، حيث قال:

"يجب عليك أن تعرف أن أثمن شيء في الحياة هو الوقت، وعليك أن تقضي وقتك الثمين في الأعمال

٤٣ الحشر، ٩١.

الثمينة مثله، أي تصرف أوقاتك في ذكر الله سبحانه وعبادته دائمًا، وعليك أن تسعى لتوطيد الإخلاص في نفسك، فقد قال رسول الله ﷺ

"إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" [٤٤]

وقد بينت لنا كثير من الأحاديث النبوية قيمة الوقت، وحثنا النبي ﷺ بكلماته الناصحة على اغتنام الوقت والتيقظ في التعامل معه، ومن ذلك:

"اغتنمْ خمسًا قبل خمس: شبابَك قبل هرمكَ، وصحتَك قبل سَقمِكَ، وغناكً قبل فقرِك، وفراغَك قبل شغلِك، وحياتَكَ قبل موتِكَ" [٤٥]

" لا تزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عن أربعٍ: عَن عُمُره فيما أفناهُ، وعن جسدِهِ فيما أبلاهُ، وعن عِلمِهِ ماذا عَمِلَ فيهِ، وعن مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفيما أنفقَهُ" [٤٦]

"نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة، والفراغ" [٤٧]

---

٤٤ الترمذي، الزهد، ١١.

٤٥ الحاكم، المستدرك، جـ٤، ص ٣٤١؛ البخاري، الرقاق، ٣؛ الترمذي، الزهد، ٢٥.

٤٦ الترمذي، القيامة، ١.

٤٧ البخاري، الرقاق، ١.

وقد أخبرنا الله ﷻ في كثير من الأيات القرآنية بأنه سوف يحاسبنا نحن عباده على كل نعمة أنعمها علينا، مادية كانت أو معنوية. وقد تعددت آراء العلماء حول أهم النعم التي سوف يحاسبنا الله سبحانه وتعالى عليها:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنها "الأمن والصحة والفراغ"،

وروي عن معاوية بن قرة أنه قال:

"أشد الحساب يوم القيامة على الصحيح الفارغ" [٤٨]

وفيما قام به الإمام الغزالي من التحذيرات التالية ضد تضييع الوقت عبر كثيرة جدا:

"يا بني! تخيل أنك اليوم توفيت، فكم تتحسر على أوقات عشتها غافلًا. فسوف تقول: آه، يا ليت. ولكن هيهات هيهات".

وقال الجنيد البغدادي قدس الله سره أيضا:

"يوم واحد من الدنيا خير من ألف سنة من الآخرة، لأن الربح والخسارة هي خصائص هذا العالم. ليس هناك كسب أو خسارة في الآخرة".

---

٤٨ انظر: إسماعيل حقي البرصوي، روح البيان، جـ١٠، ص ٥٠٤.

اعلم أن الوقت الضائع هو خسارة مؤلمة لا يمكن تعويضها. لأن جميع ملفات الماضي تغلق بمرور الوقت. ومع ذلك، يجب علينا أن نسعى لتفادي تلك الخسائر على الأقل من الجهة المعنوية بإبداء الندم على تقصيرنا في ذلك، حيث نلتجئ إلى الحق ﷻ دائمًا بالدعاء والتوبة والاستغفار لعل الله يتوب علينا.

إن نهر الحياة يتدفق بسرعة كبيرة. فإن أيام حياتنا الفانية التي حددتها الإرادة الإلهية هي مثل القطرات التي تملأ كأس الزجاج.فيجب ألا ننسى أن كل يوم يمر، نقترب نحو نهاية حياتنا المحدودة، وعلينا ألا ننسى أننا في كل يوم نبتعد عن هذه الحياة الدنيا نقترب من عالم البرزخ، وبما أن وقت الأجل ليس معروفا لنا، فينبغي أن نكون مستعدين لآخر آنفاسنا في هذه الحياة الدنيا، وعلينا أن لا ننسى أننا سوف نواجه ملك الموت عزرائيل عليه السلام في أي لحظة. كما عبر عن ذلك الشاعر الكبير نجيب فاضل بهذا البيت:

ففي تلك اللحظة التي ترتفع ستائر وتنزل أخرى
فأنت ماهر إذا كنت تقول فيها لعزرائيل "مرحبا".

إذا كنا نتفكر، فإن المستقبل مليء بالأخطار كما هو مليء بالبشرى. ومن غير المعروف بالنسبة لنا كم تبقى من أوراق في تقويم حياتنا.

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا من فضله وكرمه وجوده وأن يعيننا على عبادته حتى يأتينا اليقين كما أمرنا في الأية الكريمة[٤٩]، وأن يتوفنا مسلمين ويلحقنا بالصالحين [٥٠]. وأن يرزقنا جميعًا حياةً بعيدة عن الإسراف، وأن يوفقنا لإقامة الاعتدال والتوازن في عالمنا الباطني والظاهري وتزيين أوقاتنا التي وهبها لنا بالخير والحسنات. إنه قريب مجيب الدعوات.

آمين !...

---

٤٩ انظر: الحجر، ٩٩.

٥٠ انظر: آل عمران، ١٠.

الإسراف

في العلم

إن الروح التي ستعجن المجتمعات بالعرفان والعلم الحقيقي ليست أرواح أولئك العلماء المتربعين على عروشهم العلمية والغارقين في زوايا المكتبات بعيدا عن الناس والمجتمع، وإنما هي أرواح أولئك النفر المؤمنين الصالحين أهل الخدمة الذين هم منبع الرحمة وشمس السعاة للإنسانية، والذين تشربت أفئدتهم حكمة القرآن الكريم .

العلم هو حل سر الخلق، والأنس مع الحكمة، والقدرة على تلقي الفيوضات والتجليات الإلهية قلبًا من تدفقات القدرة والعظمة الإلهية .



الإسراف
في العلم

تتطلب الحياة منا لتتجمل ويصبح لها معنى، ورونقًا، وظرافةً وروحانيةً، الابتعاد عن الإسراف وما يمثاله من المنكرات. لأن الإسراف، يعتبر نذيرًا بالكوارث التي ستلحق بالفرد والعائلة والمجتمع.

إن كل نعمة أنعم الله بها على الإنسان تعتبر أمانة بيده. والله ﷻ يسلب البركة من نعمه إذا لم تؤدّ فيما خُصصت له فيتم إسرافها بسيطرة الأهواء النفسية عليها.

يجب عدم فهم الإسراف على أنه هدر للمال والممتلكات فحسب. لأنه متعلق بشتى أوجه الحياة. ونحن ندرك أن قضاء العمر هباءً إسراف، كما أن الانشغال بِعلم غير ذي فائدة مرجوة هو إسراف أيضًا، واستخدام العلم كأداة في غير موضعه لتحقيق المكاسب هو أيضًا إسراف كبير.

الإسراف في العلم:

إن العلم هو الفضول وحب الاستطلاع والاستكشاف الذي فُطر عليه الإنسان منذ ولادته، أي هو نشاط سامٍ يقوم به الإنسان إرضاءً لميول التعلم. والعلم الذي يوصلنا لمعرفة الحق سبحانه وتعالى عن قرب ويتيح لنا إمكانية الكمال في تكريمه بالعبادات هو الذي يشكل قمة الكرامة الإنسانية.

إن أفضل العلوم هي "**معرفة الخالق**". أي التعرف من صميم القلب على الله ﷻ. لأن هذه الدنيا الفانية هي دار ابتلاء، خلقت ليختبر الله تعالى فيها العباد أيهم أحسن عملًا، وكل النشاطات المبذولة في طريق العلم التي لا توصل العبد إلى مرامه، ولايحولها لحكمة توصله قلبيًا للحق تعالى، فإنها تُعدُّ إسرافًا لميول التعلم الفطري الموجود في الإنسان.

يرد ذكر العلم في القرآن الكريم على أنه الوسيلة التي تسوق الشخص ليمثل أمام الله ﷻ بمشاعر الخشوع والتقوى. كما ورد في الآية الكريمة:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [٥١]

فعندما تُفسر هذه الآية الكريمة بمراعاة السياق والسباق يتجلى لنا بوضوح الفرق بين أصحاب المعرفة والعلم، وبين أصحاب الجهل عند الله ﷻ. والأمور الرئيسية التي يجب الانتباه إليها ومراعاتها، لنشرف بالانضمام إلى زمرة "**أصحاب المعرفة والعلم**"، وندرك سر الحكمة بالمعنى الحقيقي، هي كالتالي:

١. المحافظة على أن يتعلق قلب العبد بالله تعالى ﷻ سجودًا وقعودًا بقيام الليل.

٢. أن نكون قلقين بكل لحظة، وحال وسلوك دائمًا في حياتنا حاسبين حساب الآخرة.

٣. اللجوء إلى الله تعالى دائمًا بالدعاء أملًا برحمته.

٤. السعي للعيش ضمن حياة تُقربنا من الله تعالى مبنية على التقوى. وتخليص عالمنا الباطني من الأوصاف

---

٥١ الزمر، ٩.

المنبوذة التي تبتعد بنا عن الحق سبحانه والعمل من أجل تجلي صفات جمال الله دائمًا علينا.

٥. أن نكون من المحسنين الكرماء، وأن نتمتع بالأخلاق الحسنة، وأن نكون واعين دائمًا أننا بين يدي الله ﷻ، ويغمرنا الشعور بأن الله ﷻ يرانا في كل لحظة.

٦. بذل شتى أنواع الجهود للمحافظة على القلب بعيدًا عن أهوائه.

٧. التحلي بالصبر على الصعوبات والمضايقات التي تواجهنا ونحن نعيش ديننا ونقوم بتبليغ رسالته للناس.

أما الصفات الرئيسية **"للذين لا يعلمون"** فهي كالتالي:

١. الكفر والنكران.

٢. يتضرع إلى الله ﷻ عندما يقع في الشدة فقط، ويمتنع عن العبودية والتضرع إلى الله عندما يجد الراحة لنفسه.

٣. الشرك بالله ﷻ اتباعًا للشهوات النفسانية ومن أجل إضلال الناس عن الله ﷻ. كما جاء في الآية الكريمة:

﴿**فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ...**﴾ [٥٢]

٥٢ الفرقان، ٤٣.

إن جميع العلوم في الحقيقة، هي عبارة عن تحديد واكتشاف القواعد والقوانين التي وضعها الله تعالى في الأكوان والحوادث. وإنما تترقى هذه العلوم بزيادة هذه الاكتشافات. إلا أن معرفة وكشف القواعد والقوانين التي وضعها الله تعالى في الأكوان والحوادث فقط لا تعني العلم الحقيقي الذي يصل بالعبد إلى حكمة الخلق. وليس العلم أيضًا المشاهدة المطلقة.

العلم المقبول هو فهم سبب إيجادنا في هذا العالم ومغادرتنا له، وإدراك لسان حال الموجودات، والقدرة على حل سر من أسرارها عارفين لحكمها.

العلم هو حل سر الخلق، والأنس بالحكمة، والقدرة على تلقي الفيوضات والتجليات الإلهية قلبًا من تدفقات القدرة والعظمة الإلهية.

العلم هو أن تجد ما يجيب الحاجة ومن يُلبيك عند الحاجة. أما الحاجة فهي القدرة على قضاء الحياة مسلمًا على النحو الوارد في الآية الكريمة:

﴿... **وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [٥٣]

٥٣ آل عمران، ١٠٢.

العلم هو التخلص من أسارة النفس قبل الموت والصحو على فجر الحقيقة.

العلم هو القدرة على محاسبة النفس قبل محاسبتها يوم القيامة عما عملت.

إن مولانا جلال الدين الرومي الذي غاص في بحر عالم المعرفة بالله ﷻ بعد التعمق في الحقائق العلمية قد لخص مراحل نضجه عندما هضم واستوعب العلوم الظاهرة ووصل إلى قمتها، ولكنه لم يتذوق بعدُ طعم لذة التقرب من الحق ﷻ بما يليق بالحق في معرفته بمرحلة "**الخام**". أما المرحلة التي تجلت فيها الحكمة لديه وفي قلبه وحاز على الرعشة الإلهية في داخله فوصف حاله فيها بمرحلة "**المطبوخ**"، ومرحلة النضج التي تجلت بها لديه أسرار الكائنات ظاهرة للعيان، وأصبح يتصفحها كما يتصفح الكتب سماها بمرحلة "**احترقت**".

في الواقع، فإن العلم يزيد الإنسان الذي يتعمق فيه رقة وحساسية. فالعلم الحقيقي يذهب بالإنسان ويسيح به في أودية الحيرة والانبهار. ومع ازدياد اكتساب

الإنسان للإدراك بحكمة وحقائق الكائنات، يفهم مدى عجزه أمام القوة والعظمة الإلهية، ويلتزم حدوده ويعلم أنه لا شيء. فيتعرف على حقيقة نفسه. ومن عرف نفسه فقد عرف ربه.

فالعالم هو الذي يعرف المالك الحقيقي لهذا الملك والخلق كلهم. ويصبح واسع المرحمة والحنان محتضنًا لجميع المخلوقات بمحبته لهم، لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذه المخلوقات.

فالعالم هو الذي يعفو. والعالم هو الذي يصبر. والعالم هو الذي يُحب.

فالعالم هو الذي يبحث عن مرضاة الله ﷻ، وتصبح التضحية والكرم في سبيل الله شيئا من صميمه يتلذذ به.

فالعالم هو الذي لا يجرح شعور أحد، ولا ينجرح شعوره من أحد. وينشر الرحمة بحاله ومقاله.

فالعالم هو الذي يسعى إلى مرضاة الله ﷻ إذا اضطر للاختيار بين الدنيا والآخرة، أي بين مرضاة العبد وبين مرضاة الحق تعالى.

فالعالم هو الذي يسعى إلى ذكر الله قيامًا، وقعودًا، وعلى جنبه، ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا...**﴾ [٥٤] أي يكون مع ربه الواحد الأحد في كل لحظة.

فالعالم هو الذي يكون دائمًا في تفكر وتأمل أمام العظمة الإلهية وسير قدرة الخالق الإلهية في الكون، فأصبحت اللطافة والظرافة والحساسية المرهفة طبيعة أصيلة لديه.

فالعالم هو إنسان الفؤاد الذي يملك القلوب.

فالعالم هو الذي يحصد السعادة في كل مكان وعلى كل حال.

فالعالم هو الذي يعتبر نفسه مسؤولًا عن المجتمع.

فالعالم هو الذي يُدرك أن الوطن، والأمة، والراية كلها أمانة. لأنه يعلم يقينًا أن المحافظة على الإيمان والعرض، والشرف، والمال والملك، والروح؛ إنما تكمن في المحافظة على الوطن والأمة.

فالعالم هو الذي يسعى ليعيش حياة روحانية للتخلص من "سيطرة أهواء النفس".

---

٥٤ آل عمران، ١٩١.

فالعالم هو الذي يتخلص من الانشغال بدمى الضلالة للدنيا الفانية. ويستغنى قلبيًا عن مايملكه من ملك فان.

فالعالم هو الذي يتخلص من أن يكون قلبه مخزنًا وموطنًا لشر الشهرة والشهوات.

فالعالم هو الذي يملك القلب الذي وصل لمرحلة القوة في عدم الاستجابة للمغريات الجذابة التي تدعو للثروة، والشهوات والشهرة والتي تقول كما ورد في الآية الكريمة: ﴿...**هَيْتَ لَكَ**...﴾ ، حيث يلتجئ إلى الله قائلًا: ﴿...**مَعَاذَ اللَّهِ**..﴾ [55]

فالعالم هو الذي يدرك أنه لا شيء يقوم أمام عظمة العلم الإلهية.

فالعالم هو الذي يعلم بأنه لا يعلم.

فالعالم هو الذي يُدرك ما يجب عليه معرفته، فيبتعد عن الحماقة.

فالعالم هو الذي يتلذذ بثمرات الإيمان من المرحمة، والخدمة، والتواضع، لأنه ذاق حلاوة الإيمان.

٥٥ يوسف، ٢٣.

فالعالم هو الذي يشاهد "روائع الخلق" فيتعجب من حسن وجمال روائع الصنع الإلهي في الكون.

فالعالم هو الذي يفهم لغة العالم لأنه يتلكم مع العارفين في كل موضوع.

فالعالم هو الذي تنسجم عنده أحاسيس العقل والقلب.

فالعالم هو المولَّه بعشق الإيمان وحبه.

فالعالم هو الذي يكون العرفان من نصيبه.

فالعالم هو الذي يصل من السبب إلى المسبب، ومن الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع المطلق.

فالعالم هو الذي يعرف ربه قلبًا يحيط علمًا بكل شيء؛ فالذي لايعرف ربه لا يعرف شيئًا. لأنه أحمق فأصبح قلبه أعمى.

قال رسول الله ﷺ فخر العالمين وقمة العارفين لربهم:

"والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات، تجأرون إلى الله " [٥٦]

٥٦ إبن ماجه، الزهد، ١٩.

بعد وفاة عمر ﵁ قال عبد الله بن مسعود ﵁:

"ذهب تسعة أعشار العلم. فقال له الصحابة الكرام: مازال بيننا علماء!. أما ابن مسعود ﵁ فأجابهم: إنما أعني علم **المعرفة**".

فقد جاء في الآية الكريمة:

﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ [٥٧]

كما تبين من هذا البيان الرباني أن العلم الذي لا يوقظ مشاعر التقوى وخشية الله سبحانه وتعالى في القلوب، فإنه ليس من "العلم " المقبول عند الله سبحانه وتعالى والذي وردت في فضله الآيات والأحاديث. ومع ذلك فإن كان هناك من يتذرع ببعض الذرائع وقت تحصيل العلوم فيتنازل عن ما أمر به الله سبحانه وتعالى وما نهى عنه مما يفتح الباب أمام الضعف المعنوي ثم يأتي ليبرهن على مشروعية هذه الأمور وبالتالي يريها على أنها أعذار تصلح لتخفيف الأحكام فإنما هو في خسران كبير.

٥٧ فاطر، ٢٨.

ومن دون شك أن العلوم الدنيوية ضرورية إذا ما استخدمت في مكانها وبشكلها الصحيح. مع العلم أن العلوم الدنيوية أيضًا تُقدم أدلة جديدة أتاحت للبشر إدراك عظمة الإله الخالق بما وصلت إليه وحققته من ارتفاع في المستوى. وبذلك يتم استيعاب مدى تجلي عظمة واحتشام الإبداع الرباني وإدراكها بكل عمق. وفي ذلك يلاحظ أن الدراسات الجارية حاليًا ابتداءً من مجال علم الفضاء والمستوى العالي الذي وصل إليه علم الجينات البشرية وما حققته التقنيات الحديثة من روائع الاختراعات، فإن جميع هذه النشاطات العلمية تعرض على أنظار البشر فيوضات وتجليات القدرة الإلهية المبدعة. وقد جاء في الآية الكريمة:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٥٨]

فالمراد من العلم الحقيقي هو الوصول إلى "**معرفة الله**" بعد الوقوف على الأسرار الإلهية المكنوزة في

٥٨ فصلت، ٥٣.

العالمين الفيزيقي والميتافيزيقي. يعني القدرة على تلقي حظوظ قلبية من فيوضات القدرة الإلهية وتجليات العظمة الربانية بعد إدراك حقيقة وجود خالق بديع عظيم. يا للندامة على القلوب المريضة التي استغرقت في غفلة إلى درجة لم تستطع أن تنتقل إلى الصنع الإلهي البديع لتعترف بربها بالرغم من الارتفاع الملحوظ الذي وصل إليه العلم وما تم اكتشافه !

إن الذين يظلمون المجتمع باستغلال العلم من أجل مطامعهم المتدنية هم في الحقيقة يقومون بإهانة العلم فيقعون في إسراف مدهش قلبًا وذهنًا. مع العلم أنه من أجل الحصول على علم نافع، فمن الضروري أن يستغني الإنسان عن ضعفه حيال ميوله النفسية المتنوعة ويضعها جانبًا لتربية عقله وإرادته على ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية. فالعلم الذي يتم تحصيله بعيدًا عن هذه التربية يكون وسيلة لخداعه فيؤدي به إلى سبل منكرة.

للأسف الشديد يتم تقييم المرء في أيامنا هذه بالنظر إلى مدى إمكانيات استعداده الذهني في تحصيل العلم، دون الاهتمام ما إن كان يحمل في قلبه الفضيلة

ومزايا القدرة على حمل العلم كما يجب، في حين أن التحصيل العلمي الظاهري فقط ليس كافيًا لتحقيق السعادة والسلامة الأبدية.

فالشخص إذا لم يصل بعلمه إلى حالة العرفان فسيكون وبالاً على نفسه ومجتمعه، فإنه لو درس الحقوق مثلًا يمكن أن يصبح ظالمًا أو جلادًا بدلًا من أن يدافع عن الحق والعدالة. وأيضًا من الممكن أن يصبح الشخص الذي درس الطب جزارًا يقطع الناس بدلًا من أن يعمل على شفائهم. ورجال الإدارة أيضًا بالرغم من كفاءاتهم العلمية إذا كانوا محرومين من المحبة والمرحمة لرعيتهم يمكن أن يتحول أحدهم إلى ظالم غدار بمرؤوسيه. فمثل هؤلاء الأشخاص يمكنهم أن يرتكبوا من الأخطاء والأضرار بحق الآخرين بسبب علمهم أضعاف ما لا يستطيع أن يقوم به الجهلاء وبكل سهولة. ولأنهم أسرفوا بحق العلم واستخدموا علمهم على الوجه الخاطئ فمصيرهم الخسارة أبد الدهر.

لقد تطرق مولانا جلال الدين الرومي –رحمه الله–، إلى هذه الحقيقة في كتابه المثنوي على النحو التالي:

"الشخص الماهر والعالم جيد إلا أن عليك أن تأخذ العبرة من إبليس (في حال عدم وجود التوازن بين علومك وبين قلبك) فلا تُول له اهتمامًا كبيرًا. ولا تنس أن الملعون إبليس الذي طُرد من رحمة الله كان أحد أقرب المقربين لله سبحانه وتعالى وكان أمير الملائكة. واغتر بعلمه وعبادته فتدلل وحاول الإساءة لسيدنا آدم عليه السلام. واستصغره فتم طرده كالقذارة وانفضح أمره".

وفي الحقيقة فإن العلم الذي يجر الإنسان إلى التكبر والإعجاب بالنفس فيغرق بصاحبه في النهاية في دهاليز ومتاهات الهلاك، وإن كان في الظاهر عبارة عن أشياء جميلة ومفيدة لكنه في الحقيقة ماذا يمكن أن يكون بالنتيجة غير الوبال على صاحبه بحد ذاته؟ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائمًا يتضرع للحق عز وجل عندما يطلب العلم قائلًا:

"اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع..." [٥٩]

٥٩ مسلم، الذِكر، ٧٣.

انطلاقًا من هذه الجملة، كما يجب على كل مسلم أن يتعلم العلوم الضرورية من الدين فيما يتعلق بعلم حاله فإنه يجب عليه بجانب ذلك أن يتعلم من الأمور الأخلاقية ما يتعلق بالتوكل، والإخلاص وكيفية طرق التخلص من الرياء والقيام بها في حياته. وفي حال إهمال هذه الأمور وعدم تطبيقها فإنه يستوجب الهلاك في الآخرة. فالذين لم يحصلوا العلم النافع مهما بلغوا من العلم ذروته سيبقون محرومين من الحقيقة الكبرى في الوصلة مع الخالق.

وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله في نصائحه المحذرة من أن يكون العلم سببًا لإسراف الوقت والجهد:

"إن العلوم التي قرأتها ودرستها، يجب أن تكون من النوع الذي يغني قلبك ويجمل أخلاقك. فعلى سبيل المثال إذا علمت أنه بقي لك أسبوع واحد من عمرك فسوف تشتغل على التأكيد بما يعود عليك بالفائدة في هذا الوقت اليسير، فتنظر إلى قلبك مباشرةً لتقطع علاقتك عن الأطماع والمنافع الدنيوية وتحاول

أن تتجمل بالأخلاق الحسنة. مع العلم أن الإنسان من الممكن أن يتوفى في كل يوم وفي كل ليلة. فعلى ذلك يجب عليك أن تختار من العلوم التي تشتغل بها ما يصحح حياتك المعنوية ويجعلك تقف متأثرًا أمام عظمة الله ﷻ ".

وفي الختام، فالعلم أمر صعب ذو شجون. فحقيقة العلم إنما تظهر عندما يترجم إلى الحياة. فإذا لم يترجم العلم إلى العمل فسيكون وبالًا على صاحبه ومهنة حمالة دون معنى يعبر عنه الآية الكريمة ﴿... **كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**...﴾ [٦٠]

أما إذا قاد العلمُ الإنسانَ إلى الحق، والحقيقة، والتقوى، والأعمال الصالحة فعندها يعتبر علمًابحق. وإلا فقد كان إبليس وقارون أصحاب علم. إلا أن علمهم عزز فيهم الأنانية وجرفهم إلى التكبر العجيب والغرور المدهش. وهم أيضًا طاوعوا أهواءهم وتعاظمت ثقتهم بأنفسهم.

٦٠ الجمعة، ٥.

ولذلك فإن العلم إذا لم يتم هضمه واستيعابه بما يليق، وإذا لم يترجم إلى العمل وينعكس على الأخلاق حتى يصبح جزءًا من الشخصية ويرتقي بصاحبه إلى العرفان، وإذا لم يرتق بالعبد إلى إقليم "**إنكار الذات**" والتواضع والمحوية، فحينئذ تعتبر جميع الجهود التي بذلت في سبيل تحصيل هذا العلم عبارة عن إسراف.

ويجب علينا أن لا ننسى بأن الله سبحانه وتعالى أهدى جميع الحقائق وأسرارها للإنسان مع القرآن الكريم. فخلاصة جميع العلوم موجودة فيه. وجميع الحقائق فكل ما هو في الكائنات من أخضر أو يابس [٦١] مكنوز في القرآن الكريم:

﴿**الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الإنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [٦٢]

فالقرآن هو آخر رسالة أرسلها الله ﷻ للبشرية تحتوي على تعاليمه الأخيرة.

---

٦١ انظر: الأنعام، ٥٩.

٦٢ الرحمن، ١-٤.

إن ما نحتاجه اليوم أمسَّ حاجة نحن كأمة محمد وكافة البشرية هو علوم القرآن. فعلى ذلك يجب الإكثار من الترويج والتشجيع على تعليم القرآن. ولكن من أجل فهم القرآن كما ينبغي يتطلب الأمر أيضًا الدخول إلى روحانية إقليمه وإمتلاك التقوى التي تعتبر جوهرًا قلبيًا. كما أن القرآن الكريم يُحذر المؤمنين على النحو الآتي:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [٦٣]

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٦٤]

بناءً عليه نتبين أن القرآن الكريم قد أفادنا بوجوب إقامة علاقة قلبية معه. ومن أجل ذلك تجب الطهارة القلبية على قدر الطهارة البدنية، أي إن التعليم المعنوي ضروري.

ويرد في الآية الكريمة أيضًا:

---

٦٣ الفرقان، ٧٣.

٦٤ الزمر، ٢٧.

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٦٥]

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [٦٦]

إن القرآن الكريم مرشدنا للهداية وداعينا للتفكر. ولأن القرآن الكريم يعبر عن المراد الإلهي فمن كان أقرب إلى الله ﷻ كان أشد إدراكا له. كما جاء في الآية الكريمة:

﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ...﴾ [٦٧]

فلذلك تنفتح كل آية لنا عن أسرارها بحسب مستوى قلوبنا.

وفي القرآن الكريم تم توجيه تحذير عبر ذات الرسول محمد ﷺ إلى أمته، إذا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [٦٨]

---

٦٥ محمد، ٢٤.

٦٦ الشمس، ٩.

٦٧ البقرة، ٢٨٢.

٦٨ الرعد، ٣٧.

فيصف ربنا القرآن الكريم بتعبير العلم في هذه الآية الكريمة أيضًا أن الأمر الذي ينبغي علينا نحن كمؤمنين تحصيله أولًا بأول هو ثقافة القرآن، فلا يمكن تصور حياة علمية دون قرآن. ولكن بات كثير منا في أيامنا مع الأسف الشديد يؤخرون أولوية تحصيل "ثقافة" القرآن الكريم في مخطط حياتهم إلى الدرجة الثانية، وحتى الثالثة منها.

إنه لمن المحزن جدًا أن يرى المؤمنون موضوع تعليم القرآن الكريم لأبنائهم أمرًا ثانويًا، ولا يراعون تعليمه وتحصيله بالجدية اللازمة كما هو الحال في جديتهم للتعلم والتحصيل للعلوم الأخرى. فيخصصون لتعليم أولادهم القرآن الكريم العطلة الصيفية فقط أو الأوقات الفارغة لديهم، وكأنهم بهذا الشكل قد تخلصوا من الواجب المفروض عليهم!. ومن أحد أكثر الأمور التي يهملها الأباء والأمهات تجاه أبنائهم هو أنهم لا يعيرون الأهمية الكافية لمعنى ومحتوى القرآن على قدر الأهمية والجهد المبذول لتلاوته.

إن عدم إيلاء الأهمية اللائقة بالقرآن الكريم، والذي يعتبر أكبر هبة أهداها الله سبحانه وتعالى للبشرية جمعاء، والتصغير من شأن دورات تعليم القرآن الكريم، والتوجه للاهتمام أكثر بالتحصيل والتعلم في المجالات الأخرى، هو عبارة عن البحث عن المستقبل في طريق مسدود. مع العلم أن الإنسان يحتاج للغذاء المعنوي أكثر من حاجته للغذاء المادي.

ما أجمل ما قاله حضرة مولانا جلال الدين الرومي:

"لا تول الأهمية للتغذية المفرطة للجسد، لأنه في النهاية ضحية سيتم إيداعها في التراب. وانتبه في الواقع لتغذية قلبك أولاً! فهو الذي سيتسامى ليكرم. هناك أغذية معنوية للروح. فقدم لها الفكر الناضج والتفهم المرهف والأغذية الروحية، لتذهب إلى مكانها المقصود شديدة القوة."

إن المنافع النفسية هي عبارة عن قيود تم بها تقييد حياتنا الروحية. إلا أنه لايمكن الوصول إلى الله بقلب شغوف بالمنافع. فاعلم أن الانجراف مع أهواء النفس كالحجر المربوط بالخصر لايمكن السباحة معه

ولايمكن الطيران به. فإذا لم يشغل المؤمن نفسه بالحق فإن الباطل سيشغله.

ما أجمل كلام الشيخ سعدي الشيرازي:

"إن الذين يعيشون في عالم السفه والضلال تشمئز أرواحهم منهم."

إنه لتيه فجيع أن تُطلب السعادة من السفه والضلال! ومن سيشفع لنا بالسعادة هو الله الحق وليست شهادات الفانيين، فكما أن الآية الكريمة التالية هي عبارة عن تحذير كبير:

﴿... وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [٦٩]

يجب علينا ألا ننسى، أن الروح التي ستعجن المجتمعات بالعلم الحقيقي مع العرفان هي ليست أرواح أولئك العلماء، المتربعين على عروشهم العلمية والقابعين في زوايا المكتبات الضخمة بعيدا عن واقع الناس وحياتهم. وإنما هي أرواح أولئك المؤمنين

٦٩ المنافقون، ٧.

الصالحين أهل الخدمة الذين هم منبع الرحمة والسعاة للإنسانية الذين تشبعت أفئدتهم بحكمة القرآن الكريم.

ياربنا ! احفظنا من الوقوع في خسران الأشقياء الذين حرموا من سعادة القرآن فظنوا سفاهتهم سعادة. اللهم يسر لنا أن نحاسب أنفسنا، فنكون من عبادك الذين يأتونك بقلب سليم قويم حساس قبل يوم العرض عليك يا رب العالمين ! وقنا أن نسرف سعادتنا الأبدية بأن نتجاوز الحدود الإلهية بسبب شهواتنا النفسانية المتذبذبة وغفلاتنا في هذه الدنيا الفانية !

آمين!

الإسراف

في القيم الأخلاقية

إن الله تعالى يأمرنا أن نتحلى بالأخلاق الحميدة والقلب المرهف والإحساس الإنساني العميق على مدى سنوات عمرنا، فالتخلق من مزايا الإنسان التي أكرمه الله بها، بينما جرد بقية المخلوقات منها.

فلا يمكن تصور حياة دينية مفصولة عن الأخلاق الحميدة. والإيمان المجرد عن القيم الأخلاقية ، كالشمعة دون وقاية، فهي دائمًا معرضةً للتهلكة وللخطر الشديد أمام رياح الأهواء النفسانية والشيطانية.



الإسراف
في القيم الأخلاقية

الأخلاق هي ما يرضي ربنا ﷻ وما يريدنا نحن عباده أن نتخلق به من خصال حسنة وسجايا طيبة، وهي واحدة من أعظم المظاهر البشرية. لأن الأخلاق الحميدة بموجب الأثر الخير "**تخلقوا بأخلاق الله**"[٧٠] هي إحدى تجليات الجمال لله ﷻ في قلوب عباده المؤمنين.

وفي هذا الصدد فإن التخلق الذي هو من أهم وظائف عبوديتنا لله سبحانه هو في الوقت نفسه من أوضح العلامات البارزة على قربنا من الله تعالى. فالأخلاق قيمة ذات بعد علوي تتوج مستوى عبوديتنا.

كما أن الأخلاق التي تشكل الجمال والكرامة الإنسانية هي الكاشف الأكثر وضوحا عن هوية الإنسان.

---

٧٠ انظر: المناوي، التعاريف ، ص. ٥٦٤ .

ولذلك، فإن الأخلاق صفة عالية متفوقة خاصة ببني البشر من بين الخلق أجمعين.

فالإنسان الكامل يمثل في دار الابتلاء هذه نصبًا تذكاريًا للخلق بما يحمله من دقائق الصنعة الإلهية ومظاهرها البديعة. وإنما تستطيع السلالة البشرية التي خلقت كنموذج استثنائي في الدقة المتناهية، المحافظة على قيمتها العالية هذه بشرط أن يعيش الإنسان عبودية قائمة على المبادئ الأخلاقية التي أمر بها الحق سبحانه وتعالى.

وقد خلق القلب الذي هو بمثابة محفظة للأخلاق على استعداد لتلقي أعظم شرف كونه منظورًا إليه من الله سبحانه وتعالى. ففي هذه الحالة إذا لم تستطع البشرية أن تزين عالم القلب بالفضائل الأخلاقية سعيا وراء خطة الحياة التي رسمت من أجل تحقيق رغبات النفس وشهواتها النفسانية فإنه يخون كرامة الإنسانية والعبودية، ويخسر مكانته العليا عند الحق سبحانه وتعالى. وهذا يعني أن الإنسان الذي خُلق من بين الخلق على أحسن صورة حتى صار مظهرًا لشرف استثنائي بتكريم الله له، عندما يهدر ويضيع مكانته

العظيمة عند الله فإنه بذلك يفرط في مكانته، ويكون هذا بمثابة إسرافه لقدره الكبير.

إن الغرض من الأخلاق أن يهذب الإنسان من صفاته وخصائصه ليكون "إنسانًا كاملا" في نظر الإسلام يستشعر أنه تحت نظر الحق جل وعلا، فبذلك تصير الخصائص العليا مثل اللطافة والظرافة والأدب والحياء والكرم والجود والشفقة والرحمة وغيرها من الصفات الكريمة فطرة طبيعية منقوشة في جوهر الإنسان.

وفي هذا الصدد، فإن الأخلاق جزء لا يتجزأ من الدين والإيمان، بل هي بمثابة الروح والجوهر من الدين. كما أن نبينا الذي أرسل رحمة للعالمين ودليل هدايتنا يبين عن وظيفته العظيمة هذه بقوله:

"بعثت لأتمم حسن الأخلاق" [٧١]

فلا يمكن إذًا تصور حياة دينية عارية عن المحاسن الأخلاقية. فالإيمان الذي لم يزين بالقيم الأخلاقية كضوء شمعة دون محفظة هو دائمًا متعرض لتأثير الأخطار العظيمة مثل العواصف الشيطانية والنفسانية.

٧١ موطأ مالك، الجامع، حسن الخلق، ٨ .

وفي هذا الصدد نحن مضطرون للحفاظ على ديننا وإيماننا بالأخلاق الجميلة، فهي مثل الدروع المعنوية لنا. كما أن حياة لا تعبأ بالقيم الأخلاقية هي حياة ضائعة، فقلوب أولئك الذين حصلوا على حصة من هذه القيم هم من نالوا سعادة تذوق الطعم الحقيقي للإيمان.

وما أجمل هذه القصة المعبرة عن أن مكارم الأخلاق هي بمثابة جسر يوصل الإنسان إلى إقليم الإيمان والهداية: فكان من بين الصحابة حكيم بن حزام ﵁ الذي اشتهر بحسن خلقه وكان من أقرباء أمنا السيدة خديجة ﵂ ويعرف بجوده وشفقته ورحمته وإنفاقه على الناس بسخاء. فكان يشتري البنات اللاتي يريد آباؤهن دفنهن وهن أحياء ويمنحهن حياة جديدة. وذات يوم سئل رسول الله ﷺ فقال:

"يا رسول الله أرأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟" فقال النبي ﷺ:

"أسلمت على ما سلف من خير" [٧٢]

٧٢ البخاري، الزكاة، ٢٤ .

وكما هو الحال في هذا المثال فهناك العديد من الأمثلة التي تبين أن الأخلاق الحميدة مرتبطة ومتصلة بالإيمان برابطة متينة واتصال وثيق. ومن هذه الأمثلة سحرة فرعون الظالم الذي زعم ألوهيته مغرورًا بسلطانه وجبروته، فواجه سيدنا موسى عليه السلام بسحرته في سباق.

كان السحرة قبل ذلك يعيشون غافلين عن الإيمان. ولكنهم هم أيضًا كانوا سعداء لأنهم كانوا يتمتعون بسعادة مكارم الأخلاق التي هي سر تملك مفتاح الإيمان. فقبل المنافسة اقترحوا على سيدنا موسى عليه السلام أن يكون له الأولوية احترامًا له من باب الأدب، فجلب صنيعهم هذا رضى الله تعالى عليهم فكان هذا داعيًا إلى هدايتهم ووسيلة ليتذوقوا طعم الكرامة الإيمانية في قلوبهم بعد أن عاينوا وشاهدوا المعجزات الإلهية التي وقعت بين أيديهم. فلم يكن إيمانهم أي إيمان بل على العكس كان قويًا لدرجة أنه لم يتزعزع أمام العذاب الذي لقوه، ولم يتنازلوا عن إيمانهم بالرغم من التضحيات الجسيمة.

بينما كان فرعون وحاشيته أيضًا يشاهدون نفس المعجزة التي أدت إلى إيمان السحرة لكنهم سقطوا في مصيبة احتضان إلحادهم بعناد أكثر فظاعة. وفي نهاية المطاف استشهد السحرة الذين قتلهم فرعون شر قتلة. فصار هؤلاء الأبطال الذين أظهروا الثبات في إيمانهم وشربوا من كأس الاستشهاد في سبيل الله ﷻ ينالون سعادة إلهية ثانية حيث خلد ذكرهم في القرآن وأصبحوا ذكرى حسنة ونموذجًا صالحًا لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة.

هذه هي بركة رعاية القيم الأخلاقية مثل اللطافة والظرافة والرقة القلبية والسخاوة والرحمة...

ومن الضروري أن نفكر أنه إذا كانت الأخلاق الجميلة التي تحظى بقيمة كبيرة عند الحق سبحانه وسيلة ترتقي بالمحرومين عن الإيمان إلى التشرف به وهو أكبر نعمة في الوجود، فكيف يكون نصيب أهل الإيمان الذي تزينوا بمكارم الأخلاق.

ومن ناحية أخرى فإن الانجراف إلى الإسراف في القيم الأخلاقية يعد الأساس لفساد المجتمعات، بل

الفاتحة للكوارث الكبيرة. فإنما يمكن تحقيق أمن وطمأنينة المجتمعات والأفراد بإعداد جيل يتمتع بالأخلاق الجميلة، أي جيل متدين ملتزم ومحب لوطنه وظريف ورقيق القلب كما يقول محمد إقبال:

"المسلمون مسؤولون عما يجري في العالم".

في هذا الصدد يطلب منا ربنا ﷻ عدم الانجرار وراء الذين يقعون في جنون الإسراف معتدين الحدود كلها فيقول:

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [٧٣]

وفي آية أخرى يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٧٤]

٧٣ الشعراء، ١٥١-١٥٢.

٧٤ النور، ١٩.

ينشأ الحرمان من نعمة الحياء والأدب، إحدى أهم القيم الأخلاقية الأساسية من الضعف وعدم الكفاية في الدين والإيمان، كما يقول سيد الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:

"والحياء شعبة من الإيمان" [٧٥]

مبينًا العلاقة القوية للإيمان بالقيم الأخلاقية. وبناء على ذلك فإن الذين يريدون أن تنتشر اللاأخلاقية في المجتمع يرتكبون أكبر جريمة قتل ضد إيمان ذلك المجتمع. فالهدف الرئيسي لجميع الأديان السماوية الحقة بعد ترسيخ عقيدة التوحيد في الأرض إنما هو إقامة بنية اجتماعية متينة ممزوجة بالأخلاق الحميدة.

إن تاريخ العالم الذي طالما شهد على الثأر الإلهي الذي وقع بسبب اللاأخلاقية والطغيان مليء بمشاهد الحكمة والعبرة لمن يتعظ ويعتبر من أولي الأبصار. فيكفي لرؤية هذه الآثار المشي في الأرض بنظر العبرة والاتعاظ. كما ورد في الآية الكريمة:

---

٧٥ البخاري، الإيمان، ٣ .

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[76]

من علامات يوم القيامة الذي يعني هلاك العالم كله أن تنجرف المجتمعات في جنون الإسراف متجاوزة حدود الأخلاق كلها.

وهذا أيضا يعرض السمة المدمرة للإسراف وقد ذكر في الأحاديث النبوية العديد من أمور الفجور من اللاأخلاقية والبغي والعدوان التي ستحدث لا محالة قبل قيام الساعة:

"يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم، وشرفهم متاعهم، وقبلتهم نساؤهم، ودينهم دراهمهم ودنانيرهم، أولئك شرار الخلق لا خلاق لهم عند الله"[77]

عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال:

"يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام" [78]

---

٧٦ النمل، ٦٩.

٧٧ علي المتقي، كنز العمال، جـ١١، ص ١٩٢ الرقم : ٣١١٨٦.

٧٨ البخاري، البيوع، ٧ .

"ليأتين على الناس زمان يكذب فيه الصادق، ويصدق فيه الكاذب ، ويخون فيه الأمين ، ويؤتمن الخؤون ، ويشهد المرء ولم يستشهد ، ويحلف وإن لم يستحلف" [٧٩]

عن أبي بَكْرة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

"يأتي على الناس زمان لا يأمرون فيه بمعروف ولا ينهون عن منكر" [٨٠]

أي لا يحثون على الالتزام بالمعروف، ولا ينفرون الناس عن اتباع المنكر.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ:

"يأتي على الناس زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء"

قيل: مم ذاك؟ قال:

"مما يرى من المنكر لا يستطيع أن يغيره" [٨١]

---

٧٩ الطبراني، المعجم الكبير، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، جـ٢٣، ص. ٣١٤، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة الطبعة الثانية.

٨٠ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٧، ص ٢٨٠.

٨١ علي المتقي، كنز العمال، جـ٣، ص ٦٨٦ الرقم : ٨٤٦٣.

كما أن الرواية عن عبد الله بن عمر ﵄ مثال واضح على أن الضعف والإسراف في القمية الأخلاقية يسبب هلاكًا أليمًا:

عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ. فقال:

"يامعشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن:

١. لم تظهر الفاحشة في قوم قط. حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا،

٢. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أثخنوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم،

٣. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا،

٤. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم،

٥. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم " [٨٢]

وقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من الوقوع في مثل هذه الحالات، فقال في كتابه العزيز في الآية الكريمة:

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [٨٣]

وقد أخبر بذلك جل شأنه أنه لم يتركنا سدى لحالنا حتى نفعل ما نشاء. ودعانا إلى تيقظ قلبي فأراد منا أن نلتزم الحدود الشرعية الإلهية في سلوكنا وأن نتجنب تضييع الحياة والانشغال بالأمور الفارغة مثل التطرف والشبق والإفراط والتفريط.

في الواقع، هناك آيات قرآنية كثيرة تأمرنا بالاعتدال في سلوكنا، وتوصينا بالأخلاق الحميدة، وفيما يأتي آيتان من هذه الآيات الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [٨٤]

---

٨٢ ابن ماجه، الْفِتن، باب الْعُقوبات، ٢٢.

٨٣ ق، ١٨.

٨٤ المؤمنين، ٣.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [85]

وفي الحقيقة أن أحد أشكال السلوك الرئيسية التي تُلحِق بالبشر الهلاك هو "الفظاظة". فهي تعني التخلي عن الجمال الأخلاقي مثل الرقة والظرافة واللطافة. وهي كما ورد في التشبيه القرآني بمثال الحمار تكاد تكون وداعًا للخصائص البشرية وفراقا للفطرة الإنسانية.

فأسلوب الخطاب الذي يناسب الإنسانية هو **"قول لين"** كما ورد في العبارة القرآنية [86] يعني لسانًا ناعمًا. وقد أمر الله ﷻ سيدنا موسى عليه السلام أن يستخدم لغة ناعمة حتى مع فرعون عندما أرسله إليه، فيقول ربنا تعالى أيضًا:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [87]

---

٨٥ لقمان، ١٩.

٨٦ انظر: طه، ٤٤.

٨٧ الإسراء، ٥٣.

فيطلب منا أن نلتزم بمعايير اللطف في الكلام حينما نخاطب الناس.

وفي آية أخرى يخاطب الله سبحانه نبينا محمدًا ﷺ منبها إيانا أن نتعلم منه أدب الكلام والخطاب وحدوده، فيقول:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ...﴾ [٨٨]

ومن الناحية الأخرى كما يجب علينا أن نلتزم الاعتدال في كل شيء فكذلك يجب مراعاة الاعتدال في السلوكيات الأخلاقية أيضًا. وإلا فكثير من السلوكيات الأخلاقية المقبولة في نسق الاتزان تصير غير مقبولة حينما يدخلها التطرف أي الإسراف، فإن هذا السلوك يذهب بالمرء إلى الغلو من الإفراط والتفريط.

على سبيل المثال، فإنه من إسراف التواضع الذي هو من مكارم الأخلاق أن يتصرف فيه بشكل مفرط مشعرًا بالتباهي والتفاخر.

---

٨٨ آل عمران، ١٥٩.

في الواقع، بعض الناس يتخذون موقفا متواضعا ليقال عنه: "**إنسان متواضع**"، فهو في الحقيقة يسعى من أجل تحقيق رغباته النفسانية. فهذه الحالة المرائية وغير المخلصة هي في الواقع ليست غير "**التفاخر بالتواضع**" يعني الاختفاء والتستر بعباءة التواضع، وما هو في الحقيقة إلا عبارة عن التفاخر والتباهي.

على سبيل المثال تلك الكلمات مثل: "أنا العبد العاجز إنما أستطيع أن أختم القرآن في ثلاثة أيام". "أنا العبد الفقير إنما استطعت أن أبني مسجدًا واحدًا، واستطعت أن أقدم عونًا لكذا عدد من الفقراء" إنما هي عبارة عن النفاق والفخر إلا أنه يتم عرضها تحت كسوة التواضع.

وفي المقابل فإن الانجراف إلى التفريط في محاولة كسب التواضع يعني الوقوع في المذلة في مواجهة شخص متعجرف، فإظهار تواضع زائد عن الحد يؤدي بالشخص في مثل هذه الحالة إلى إسراف في قيمة أخلاقية.

وعلاوة على ذلك، فإن إظهار الفخر باسم الحفاظ على الوقار، والوقوع في الإفراط الذي ينشأ من

تجاوزات حد الإخلاص، بسبب التخلي عن مقياس الصدق في العلاقات البشرية وفي الصداقة وخاصة في الحياة الأسرية، وبسبب البذاءة في المعاملات أيضًا، يعد من إسراف القمية الأخلاقية، فينشأ منه ضياع القيم. فكل هذه الأمور تدل على أنه يلزم الاتزان في جميع السلوكيات الأخلاقية، حتى يجب عليك أن تحدد مقدار الجرعة لمن تحسن إليه لئلا تقع في الإسراف من الأخلاق.

فعلى سبيل المثال قد كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول فيما يتعلق بخطاب العبيد والخدم، معربا عن كمال رقته وحساسيته:

"لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي" [٨٩]

وفي المقابل يأمرنا رسول الله ﷺ أن نخاطب الذين ضيعوا عالمهم القلبي بالفسق والفجور، فجلبوا على أنفسهم غضب الله ﷻ، أن نخاطبهم حسب درجاتهم:

٨٩ مسلم، الأدب، ١٣.

"لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيدا فقد أسخطتم ربكم ﷻ " [90]

وهذا يعني أن استخدام نفس المعايير للتواضع واللطف في العلاقات البشرية دائمًا في كل مكان ومع كل شخص بنمط واحد مثل النظارات غير المرقمة، مما يعني الوقوع في إسراف الأخلاق. فمن الضرورة الأخلاقية أن يوجَّه الحبُّ لمن يستحقه، وأن تعلن الخصومة لمن يطلبها. فالمهم هو أن تراعي الحدود الإلهية في الأمور الأخلاقية كما تراعيها في الأمور كلها، وبالتالي لتكون قادرة على إظهار شخصية المؤمن الناضجة بحيث تحافظ على الموازنة والاعتدال.

فقد عاش النبي سيدنا محمد ﷺ في حياته الخاصة هذه الأخلاق الإسلامية بأسلوب عظيم من اللطافة والظرافة، ووصى أمته بهذه الفروق الدقيقة من خلال شخصيته المثالية التي هي بالنسبة لنا أسوة حسنة وأفضل مثال يحتذى.

---

٩٠ أبو داود، الأدب، ٨٣ .

وفي الواقع فقد كان النبي ﷺ لا يواجه أحدًا بتهمة، حتى لو كان يعرف المجرم في المجتمع، بل كان يوجه غلط الرؤية لنفسه، فيقول: **"ما لي أراكم"** [٩١] معربًا بأنه لم يستحسن ما صنعه مخاطبه.

وذات يوم لما دخل رسول الله ﷺ مسجده وجد رائحة ريح، ولئلا يُحرِجِ من خرجت منه الريح، أمر عليه الصلاة والسلام القوم بالوضوء سترا عليه، فقال:

"من أكل لحم جزور فليتوضأ" [٩٢].

فقام جماعة كانوا أكلوا من لحمه فتوضؤوا! فأخفى النبي ﷺ بذلك مَنْ صدر منه العيب حرصًا على عدم إهانة شخصه، وفي الوقت نفسه حذر القوم من الوقوع في العيب نفسه. يعني طلب من أصحابه جميعًا أن يتوضؤوا من جديد ليتستر على من صدر منه هذا الأمر دون قصد.

---

٩١ انظر: البخاري، مناقب، ٢٥؛ مسلم، الصلاة، ١١٩.

٩٢ في الواقع فإن المذهب الظاهري الذي لم يدرك حكمة هذه اللطافة في ممارسات النبي محمد ﷺ، واقتصر على العمل بالظاهر من النصوص، ذهب إلى أنه يجب الوضوء على من أكل لحم الجزور.

فالأخلاق النبوية كانت دائمًا تشير إلى التحلي بالرحمة واللطافة والظرافة والرقة القلبية. وكان النَّبِيُّ ﷺ رحيمًا رفيقًا يقابل الذين ينادونه بألفاظ خشنة: "يا محمد! يا محمد!" بالمسامحة ويرحب بهم مبتسمًا بهدوء، فيقول لهم: "ما شأنك؟"، "هذه حاجتك" أو قال: "هذه حاجته" [٩٣]

وفي هذا الصدد من الضروري أيضًا أن نأخذ بعين الاعتبار مستوى الإدراك والوعي للمخاطبين، ولاسيما أن نمتثل الآداب النبوية، ونراعي قواعد اللطافة فيما يتعلق بفضائل الأعمال من مثل الإنذار والتوجيه والإرشاد للناس الخاطئين.

ومن ناحية أخرى فإن من الشروط الحاسمة رعاية والتزام الآداب والأصول في مثل "السخاوة" و"الإنفاق" من الفضائل التي هي من أهم مظاهر الأخلاق الجميلة. وإلا فمن الممكن أن تضيع أجور الأعمال الحسنة فتكون إسرافًا، أي هباء منثورًا بسبب الأمراض القلبية

٩٣ مسلم، النذر، ٨؛ أبو داود، الأيمان والنذور، ٢١/ ٣٣١٦ .

المعنوية، مثل المن والأذى وكسر القلوب والتفاخر والإعجاب بالنفس. ولهذا السبب كان أسلافنا يُظهِرون حساسية لا تصدق في الخير الذي يفعلونه حتى لا يقعوا في ضعف أخلاقي.

فكان أسلافنا يخاطبون حتى المرضى عقليًا بـِ"العجزة المحترمين" من أجل الحفاظ على كرامتهم الإنسانية، وكانوا يمدون أيديهم الرحيمة لمرضى الجذام الذين يُقصون عن المجتمع عادة، فأقاموا أماكن خاصة لإيوائهم باسم " تكية الكسالى / المساكين".

وقد أسسوا مؤسسات وقفية لحماية شرف وكرامة العجائز من السيدات واليتيمات اللواتي ليس لهن من يعولهن ولا يستطعن أن يبحن بحاجاتهم للآخرين بسبب حيائهن ووقارهن.

وقد أعطوا لهؤلاء السيدات المسنات صوفًا نظيفًا مغسولًا ممشطًا، ثم قاموا بشراء هذا الصوف بأثمان باهظة بعد أن قامت هؤلاء السيدات بتدويره وغزله، مما يتيح لهؤلاء السيدات المسنات فرصة العيش مما كسبت أيديهن.

وقد أنشؤوا "حجارة الصدقة" في فناء المساجد بهدف ضمان أن يبقى المتَصدَّق عليه مجهولًا لدى المتصدِّقين.

وكان يتم تسليم الطعام وتوزيعه على المحتاجين في الظلام بأوعية مغلقة من أجل عدم إيذاء قلوبهم.

وقد أنشأت "بزم عالم" والدة السلطان مؤسسة وقفية تعوض الأضرار التي أحدثها العاملون من كسر أو تخريب ممتلكات رؤسائهم في العمل أو أسيادهم، لئلا تتوجه إليهم ألسنة التأنيب والتوبيخ، فتنكسر قلوبهم وتنجرح كرامتهم.

لأن الله سبحانه لا يرضى أن يحتقر عباده وتتأذى قلوبهم التي هي محط نظر الحق سبحانه وتعالى. إنَّ فيما يعرضه سلفنا المبارك الذي أدرك هذه الحقيقة جيدًا نماذج رائعة للاقتداء بها فيما يُظهرون من أدب ولطف وظرافة وحساسية حينما يعيشون الأخلاق الإسلامية.

فخلاصة القول إن ربنا عَزَّ وَجَلَّ يأمرنا أن نعيش حياتنا كلها في دائرة الأخلاق الجميلة بقلب رقيق يليق بالكرامة

الإنسانية. لأن الحق سبحانه قد خص الإنسان بالفضائل الأخلاقية. فإن الأخلاق غائبة تماما بالنسبة للمخلوقات الأخرى.

إنه لخسران أليم وجنون وإسراف رهيب باسم شرف الجنس البشري أن تنحط البشرية عما خصها الله به من هذه المزايا، فتنحدر إلى أسفل السافلين بتشبهها بالحيوانات.

اللهم يا ربنا نسألك أن تحفظنا من جميع أنواع المصائب، ومن الإسراف الذي يجعل أعمالنا هباء منثورًا في الآخرة. وأن تقسم فينا في قلوبنا نصيبًا من الأدعية التي خرجت من فم النبي المحسن الكريم ﷺ حيث كان يدعو:

"اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي"

"واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت" [٩٤]

آمين...

٩٤ ابن حجر، فتح الباري، جـ ١٠، ٤٥٦.

الإسراف

في التفكر

يبدأ التفكر الحقيقي عند نقطة اجتماع العقل مع القلب. فيشاهد أولياء الحق سبحانه أثار الصنعة الإلهية في العالم كأنهم ينظرون إلى بئر عميقة . ثم ينتقلون من هناك إلى إقليم المعاني والعبر التي تعجز الكلمات عن تأدية حالها لأنها تخرج من الصدر الواعي والقلب البصير. وهؤلاء الذين يشاهدون العالم بمثل هذا القلب يستمتعون بروعة الصنعة الإلهية فيما يعرضه ربنا من البدائع غير المتناهية .



الإسراف في التفكر

قد أسبغ الله على البشرية خصائص كرَّمهم بها دون المخلوقات الأخرى من مثل العقل والمنطق والتفكر. وقد وجه جميع الأمثلة في القران الكريم لبيان خطابه إلى أصحاب العقول. فأراد سبحانه من عباده أن يكونوا في حال تفكر دائم، وأن ينظروا إلى جميع الكائنات بعين الحكمة والاعتبار.

ولهذا السبب يتكرر أسلوب الخطاب الموجه في الآيات القرآنية لأخذ العبرة، فترد تراكيب الاستفهام من مثل ﴿أفلا تعقلون؟﴾، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ؟﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ؟﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ من أجل أن يدعونا ربنا إلى أن نكون دائمًا في حال التفكر.

وقد وجه القرآن الكريم خطابه إلى الناس بقوله: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ستة عشر مرة مشيرًا إلى العقل الذي يجد قيمته الحقيقية داخل واحة الوحي.

ولذلك فإن ذوي العقول، الذين يرغبون في العيش حياة جديرة بالكرامة الإنسانية، ملزمون بدخول عالم التفكر الذي يضيئه القرآن الكريم.

ولو لم يفتح الإسلام للإنسانية آفاق التفكر لَكُنَّا عاجزين بعقولنا المجردة عن إدراك الكثير من الحقائق. ولحملتنا شهواتنا وأهواء نفوسنا على توجيه التفكير إلى منافعنا الخاصة فقط.

وفي هذا الصدد، فإننا بحاجة إلى إرشادات وتحذيرات القرآن والسنة. لأن الدليل الوحيد الذي يعطي لتفكر الإنسان وجهةً صحيحة ويبين له مبادئ العيش على الصراط المستقيم إنما هو القرآن والسنة فقط.

ولذلك يُعد التفكر من أهم عِباداتنا. فَلِتكون عبدًا للّه حقا يجب أن تقف على حِكم وأسرار الكون والحوادث، والوقوف على ذلك يقتضي تعميق عالم

القلب بالتفكر. فيجب أن يكون هدف كل مؤمن السعي لإقامة كل أفكاره وعواطفه وحتى أنفاسه وفق مرضاة الله سبحانه وتعالى.

فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده وحده. فكل ما يتعارض مع حكمة خلقنا هذه من أفكار وأفعال تدخل ضمن دائرة الإسراف لا محالة.

إن العقل لا محالة من أعظم النعم التي منحت للإنسان، ومع ذلك فإن العقل وحده عاجز أن يصل بالمرء إلى الحقيقة. فقيمة التفكير البشري تعتمد على عمل وظائف المخ والقلب في توازن متناغم. فإذا أعطيت القيمة للعقل والمخ فقط فيمكن للإنسان أن يكون شخصية عالمية كبيرة ولكن حتى يكون مؤمنًا كاملًا يجب أن يتم تربية القلب الذي هو مركز العواطف تربية معنوية فيرشد العقل بعد ذلك. فإن القلب الذي هو مركز العواطف والمشاعر يعطي الاتجاه إلى التفكر وإن التفكر يعطي الاتجاه إلى الإرادة.

وهذا يعني أن الدافع الأساسي لجميع الأعمال الإرادية هو القلب، يعني المشاعر التي استقرت هناك

في القلب وتجذرت. وفي هذا الصدد أن يوضع القلب في إطار الأوامر الإلهية أهم بكثير من وضع الأعضاء الأخرى في هذا المسار.

إن عقل الشخص المستنيرِ عالمُهُ القلبي بالقرآن والسنة إنما يتعارف بالحقيقة. ولقد تم خلق العقل والقلب في وضع من شأنه أن يوصل المرء إلى الحقيقة بشرط الاستزادة من المنابع الرحمانية. فلذلك يبدأ التفكير الحقيقي عند نقطة يلتقي فيها القلب المستفاض بالوحي مع القلب السليم.

بل هو أيضا مضيعة أي إسراف للتفكر أن يحاول الخوض في القضايا الخارجة عن نطاق إدراكه. ومن الضروري التفكير في تجليات الله الصفاتية والقرآن والكون وخصوصيات الإنسان في نفسه.

ولكن محاولة التفكُّر في الموضوعات التي تفوق طاقة البشر، مثل ذات الله سبحانه وتعالى، ومحاولة كشف وحل جميع أسرار القدر وحكمته، هو نوع من تبديد العقل وإسرافه كما أنه محظور بالقرآن والسنة أيضًا.

لأنه كما للعين مسافة بصرية، وللأذن حدود سمعية، فكذلك للعقل أيضًا طاقة محدودة للإدراك. ولهذا السبب، فان العقل يحتاج إلى إرشاد الوحي الرباني. كما أن الغفلة عن التفكر في الحقائق الإلهية تؤدي إلى الكارثة، فكذلك تخطي العقل حدودَه وتصديه لما يفوق إدراكه يؤدي بالمرء في النهاية إلى الضياع والخسران في الأخرة.

إن تفكر العقل المحروم من إرشاد القلب السليم، والمغلوب على شهواته النفسانية، والقابع في مستنفع الأمراض القلبية كالغرور والكبر؛ إن هذا العقل يخرج من مساره الطبيعي وينساق بالإنسان إلى الطغيان مثل الشيطان والضلال.

وقال مولانا جلال الدين الرومي –رحمه الله –:

" لو كان للشيطان عشق بقدر عقله

لما صار اليوم فيما وقع فيه كإبليس "

فلذا فان العقل وحده لا يعني أي شيء في حد ذاته. بل يتحتم عليه أن يسترشد بالحساسيات القلبية. أما إذا

استطاعت المشاعر في القلب أن تكتسب الروحانية نتيجة التربية المعنوية، فحينئذ قد يكون من الممكن الأخذ بزمام العقل وتوجيهه إلى الصراط المستقيم.

فمن الصعب جدا السيطرة على المشاعر. ولكن من الضروري أيضا أن نبذل قصارى جهودنا لجعل عواطفنا تسير وفق مرضاة الله سبحانه وتعالى. والطريق إلى ذلك يمر من خلال التفكر في إقليم القرآن الكريم والسنة النبوية. وفي الآفاق التي فتحت بمثل هذا التفكر فسوف تنسجم مشاعرنا مثل أفكارنا بمرضاة الله تعالى بفضله وكرمه وإحسانه. فإن القلب الذي هو مركز المشاعر، هو في الوقت نفسه مركز الإيمان أيضًا.

فلأن الإيمان شعور سام وعاطفة عظيمة في واقع الأمر ورد الإيمان تصديقًا بالّقلب وليس بالعقل. فلذلك لا يمكن اكتشاف الأسرار الإلهية للكون إلا عن طريق العقل المتصل بالقلب المؤمن.

ولهذا السبب فإن أهم قضية في الدين هي الاعتقاد.. فالإيمان لا يقبل أبدًا بالتنازلات النفسانية. لأنه إذا شُعِرَ الزجاج شَعْرًا بسيطا فإنه ينمو على مر الزمن حتى ينكسر

الزجاج في نهاية المطاف. فمن الضروري أن نكون يقظين وواعين لئلا تقع وصمة عار سوداء في عالم القلب، فيحدث الصدع.

يتضاعف ثواب العبادات بالخشوع والخضوع إلى الله عز وجل، كما أن الغفلة تسبب النقصان في الأجر المرجو منها. ولكن عندما يسبب التفكر بانصداع وكسر في القلب من خلال انزلاقه إلى النفسانية فإنه يعرِّض الإيمان للخطر. والغفلة في الإيمان - عياذًا بالله تعالى - تزل بالأقدام.

وكان قارون من الأمثلة العديدة لهذا الأمر. فبينما كان عبدًا صالحًا في بداية حياته أعطاه الله تعالى ثروة كبيرة بفضله وكرمه. لكنه فرح بما أعطي فأصبح عاصيًا لربه، وادعى أنه أوتي هذا المال على علم عنده حتى ذهب به غروره إلى أكثر من ذلك، فحاول أن يتخذ موقفًا ضد سيدنا موسى عليه السلام. فخسف الله العلي القدير به وبثروته التي كان يعتد بها، فبقي عبرة للعالمين.

ويخبرنا الله سبحانه وتعالى بعاقبته في هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[٩٥]

إن زيغ القلب من الأرضية الصلبة للإيمان يشبه انفلات السكين من يدي قاطع الخبز، فيجرح طرفًا من أطرافه. فإن انفلات السكين من يديه يحصل في لحظة غفلة. وهكذا المشاعر تتحول بشكل فوري فجأة. فالعضو الذي يتمتع بالحرية أكثر من غيره من الأعضاء هو القلب الذي يعد مركز المشاعر والأحاسيس. وقد تتغير ميولات القلب في وقت ما. لأن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن. ففيه نصيب من تجليات صفة "الهادي" الإلهية، كما أن له نصيبًا من صفة "المضل" الإلهية أيضًا. وبالنسبة لنا، فتغلب إحداهما على الأخرى في حكم المجهول.

مثال آخر هي قصة بلعام ابن باعوراء الذي ترد قصته المعبرة في القرآن الكريم بشكل مثير. وفي واقع الأمر، إن الذي أفسده هو ميله إلى نفسه في لحظة غفلة. بعد

---

٩٥ القصص، ٨١.

أن كان في بداية أمره أحد عباد الله الصالحين. وكان له كرامات لا تعد ولا تحصى، وكان مجاب الدعاء. فاتباعه لشهواته وميولاته النفسانية للحظة، بأن ترك زمام عقله بأيدي نفسه هو الذي كان سببًا لهلاكه أبدًا.

فيرد حاله هذا في سورة الأعراف من القرآن الكريم كالتالي:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٩٦]

كما ذكرت الآيات فإن استخدام العقل خارج إطار الوحي الرباني وفقًا لرغبات النفس الشيطانية يُعَدُّ حماقة من الإنسان تهبط به في متاهات الضلالة المذكور مثالها في الآيات السابقة.

٩٦ الأعراف، ١٧٥-١٧٦.

ولذلك كان النبي ﷺ يذكر دائمًا هذه الكلمات في دعائه فيقول:

"اللهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ" [٩٧]

فكل هذه الأمور تدل على أننا يجب أن نتمتع دائمًا بتربية روحية مستمرة حتى نبقى بين الحالتين، أي بين "الرجاء" و"الخوف"، من أجل المحافظة على إيماننا، ومن أجل توجيه تفكيرنا الوجهة صحيحة. وحتى تخرج أنفاسنا الأخيرة ونحن مؤمنون يتحتم علينا أن نعيش الحياة كلها بقلوب رقيقة وأفئدة واعية..

كما يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [٩٨]

فعلى سبيل المثال إذا لم تكن مشاعر الحب والبغض لله؛ فتتوجه المحبة إلى من يجب بغضه، والبغض لمن تلزم محبته، فإنه حينئذ يصبح كارثة معنوية، ومن

٩٧ الطبراني، الجامع الصغير، جـ ١٠، ص٥٨.

٩٨ آل عمران، ١٠٢.

الضروري إعطاء المحبة لمن يستحقها وتوجيه الخصومة لمن يتطلبها. فمحبة الصالحين تورث السعادة. كما يقول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٩٩]

ومن جانب آخر، فإذا كانت المحبة لعدو الدين، فإنها تجلب الكوارث. وفي هذا الصدد ينهى الله سبحانه عن مجالسة أعداء الدين، حيث يقول:

﴿... فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١٠٠]

وفي هذا دلالة على أنه يلزم تربية مشاعرنا بالاستزادة من المنبع الإلهي حتى يكون تفكيرنا مستندًا على أسس سليمة. وفي آيه أخرى يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [١٠١]

---

٩٩ التوبة، ١١٩.

١٠٠ الأنعام، ٦٨.

١٠١ الأحزاب، ٧٢.

وقد نُعت الإنسان بوصفين في هذه الآية؛ وُصِفَ بصفة "**ظلوم**" وصفة "**جهول**" لعدم تقدير قيمة وثقل الأمانة الإلهية التي تحملها كما ينبغي، وجاء وصف الإنسان بهذين الأمرين من أجل إبراز عظمة ثقل الأمانة حتى يتنبه لها الناس جميعًا.

يمكننا أن نتخلص من نعت "**ظلوم**" و "**جهول**" إذا قمنا بـ"الأعمال الصالحة" بعد أن نحول علمنا الباطني والظاهري بالعرفان إلى التفكر فقط.

كما أن ربنا ﷻ يخبرنا في سورة العصر أن الإنسان إنما ينجو من الخسران إذا آمن وعمل عملًا صالحًا، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، حيث يؤدي بذلك العبادات الاجتماعية أيضًا. فقد قام الإمام الشافعي بوصف هذه السورة لما تحتوي من حقائق عظيمة بالعبارة التالية:

"لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم" [١٠٢]

فيجلي لنا ربنا أفقا تفكريا عميقًا في القرآن الكريم. كما يقول الله سبحانه وتعالى هنا في إحدى الآيات القرآنية:

١٠٢ انظر: ابن كثير، تفسير سورة العصر .

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١٠٣]

التفكر في كل التجليات العظيمة للقدرة الإلهية، فيما يتعلق بالمكان من السموات والأرض، وفي الزمان من الليل والنهار، كل هذه الأمور تدعو أولي الألباب وتقربهم من ربهم ﷻ. فالله سبحانه وتعالى يريد منا أن نفهم لغة هذا الكون الصامتة التي هي لسان حاله. فالمخلوقات كلها تتحدث إلى من استأنست قلوبهم بالنشوات الإلهية. فكل شيء بدءا بالذرَّة وانتهاء بالكون الفسيح يذكر الناس جميعًا بعظمة ربهم.

فإن التفكر في تجليات العظمة الإلهية في الكون يذهب بالعبد إلى إقليم التواضع و"العدمية". ويتوقف كمال المؤمن أيضًا على إدراك عجزه أمام قدرة ربه ومعرفته قدره. فإنما يمكن للإنسان أن يبعد عن نفسه الكبر والغرور والعجب بنفسه إذا كان دائمًا معترفًا بعدميته وعجزه وضعفه.

---

١٠٣ آل عمران، ١٩١.

ولذلك جاء في الخبر:

"ما عرفناك حق معرفتك" [١٠٤]

فإن نفس الشخص الذي لم يتمتع بالعجز وقلة الحيلة في الحياة يتحول إلى حصان هائج مثل فرعون نمرود وقارون وهامان وأمثالهم. فتصير المظالم والآهات تتناهى إلى مسامع هؤلاء الناس كنغمات عذبة.

ومن الناحية الأخرى فإن المصائب والمحن والأمراض التي تجعل الإنسان يتلوى في عذاب مؤلم إذا تم أخذ العبر والدروس منها فإنها تتحول خيرًا للمرء في الحقيقة. لأن حالة العجز وقلة الحيلة تذهب به إلى إقليم العدمية والتواضع والاِنْمِحَاء، وتجعله يتضرع من أعماق قلبه:

"منك الأمان يا رب!".

فإن الناس يتكاملون أيضًا بقدر ما يعانون من المحن ويقتحمون من العقبات. فالله سبحانه وتعالى بناء على هذه الحكمة جعل أنبياءه وعباده الصالحين يعبرون من

١٠٤ المناوي، جـ ٢ ، ص، ٥٢٠ .

هذه الدائرة، دائرة المحن والمصائب حسب درجاتهم. فقد تحولت هذه المصائب بالنسبة لهم نوعًا آخر من تجليات لطفه تعالى وسببًا لتكاملهم الروحي.

كما يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

"كل ورق في الأشجار بمثابة كتاب مفصل في معرفة الله (معرفة الحق سبحانه قلبًا) بالنسبة لذوي الإدراك.أاما بالنسبة للغافلين فإن الأشجار كلها ليست بمثابة ورقة واحدة".

وحتى يتأتى لمشاعرنا وتصوراتنا أن تتلقى الأسرار الإلهية في الكون يتحتم علينا أن نملك تعمقًا قلبيًا وإدراكًا معجونا بالتفكر. يعتبر فيوضات القدرة الإلهية في الكون بمثابة الأشعار الإلهية الصامتة والساكتة. تتعمق هذه الأشعار الإلهية حسب ما يتعمق الحواس في القلوب.

يملك أولياء الحق ﷻ عالمًا قلبيًا عميقًا يشاهدون من خلاله الآثار البهية البديعة في الكون كما ينظرون إلى بئر عميقة. ومن هناك ينتقلون إلى إقليم المعاني.

تعجز الكلمات ويخرس اللسان عن تعبير حال الفؤاد الذي يسمع والقلب الذي يبصر. فهؤلاء الذين يشاهدون الكون بهذا القلب الحساس يتمتعون بما يعرضه ربنا من الصنعة الإلهية البديعة غير المتناهية في الكون.

فهم يشاهدون حيث ينظرون إلى الزهور المتلونة المتلألئة المختلفة من فصيلة النبات التي رأس مالها التربة في كل هذه الأنواع واللمعان الكائنة عليها وإلى ثمار الأشجار المختلفة بشكل غير متناه لونًا، ورائحة، نكهة وإلى التصاميم البديعة على أجنحة فراشة عمرها أسبوع أو أسبوعان فقط ويأخذون عبرًا من كل هذه الأشياء. ويتنصتون إلى البيانات السرية للكائنات والتي يعبر عنها بـ"لسان الحال". فلمثل هؤلاء الأشخاص يصير الكون كله كتابًا جاهزًا للقراءة.

أما أولئك الذين جفت عقولهم واضمحلت فهم يشاهدون في كل شيء قشوره ويغفلون عن الدرر المعنوية المكنونة في داخله.

وما أجمل تعبير مولانا الرومي عن هذه الحال:

" أولئك الذين يعطون قلوبهم للدنيا مثل الذين يصطادون الظل تمامًا، فكيف يمكن أن يتملكوا الظل؟ كـ صياد أحمق يعتقد أن ظل الطير طير فانقض عليه يريد أن يمسكه فتعجب الطير الذي كان على غصن الشجر من حال هذا الأحمق ".

كما يقول أحد العارفين بالله تعالى:

"إن هذا العالم بالنسبة لذوي العقول مشاهدة للآثار البديعة الكونية، وأما للحمقى عبارة عن قضاء شهواتهم بالأكل والشرب".

وفي الواقع فإن قلوب العارفين الذين ينظرون إلى العالم بعين العبرة والحكمة يجدون في كل شيء حكمة مختلفة، ويقطفون ثمار الحكم من العالم. أما الغافلون فهم الذين يكبرون الصدع الكائن والظلمة في قلوبهم يقولون: "يا عزيزي، انظر إلى العالم اليوم فخذ منه نصيبك، فلن تأتي إلى هذا العالم مرة أخرى!".

إن مولانا جلال الدين الرومي يدعونا أن نتعقل وأن ننظر في حالنا وحكمة وجودنا في الكون:

"قم بمشاهدة هذا المجتمع الإنساني بعبرة! بالرغم مما ترى من كل هذه العظمة الإلهية وفيوضات القدرة الإلهية فلماذا تصبح أعمى وغبيًا، فتتراءى لك رغبات جسمك ومصالحك مثل الجبال بينما يتراءى لك التفكر السليم ضئيلًا مثل النمل؟

يا أيها الشخص الواقع في أسفل السافلين! فكما أن الحجر لا يعرف شيئًا عما يجري حوله، فأنت كذلك لا تعرف عن عالم التفكر شيئًا. يا للأسف ! قد ضيعت عليك نعمة التفكر فبقيت محرومًا من أكبر متعة في الوجود ! ".

كم هو محزن أن تخضع نعمة التفكر لإشباع الرغبات النفسانية. فإن عدم التفكر يعني خمول القلب وهو علامة الحماقة كما أن انعدام الشعور هو أيضا تحجر القلب عمى وصممًا. ومن غير المتوافق مع كرامة البشرية أن يبقى القلب متحجرا أمام هذه التجليات الإلهية. كما أن غفلة مشاهدة الكون بوجه عبوس هي الأخرى كارثة روحية. ففي القرآن يرد بيان هذه الحال في قول الله سبحانه وتعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١٠٥]

يقوم مولانا جلال الدين الرومي بتشبيه صرف نعمة التفكر في غير محله بـ "وضع القمامة في وعاء من ذهب". وهذا يعني إسراف وتضييع نعمة التفكر والتأمل التي هي أغلى قيمةً من الذهب بكثير في الشهوات السفلية والدنية.

وخلاصة القول: إن التفكر الصحيح لا يرتفع بنيانه إلا على أرض صحيحة، وإلا فإن التفكر الذي لم يقع بشكل صحيح يؤدي بصاحبه في النهاية إلى خسران عظيم. وبالتالي فإن ندامة أُولِئَك الذين ضيعوا نعمة التفكر من أجل إشباع رغباتهم النفسانية وسدوا آذانهم عن سماع الحق، فندامتهم تذكر في الآية القرآنية كالتالي:

---

١٠٥ الحج، ٤٦.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[١٠٦]

وهذا يعني أنه من أجل خلاصنا ونجاتنا في الحياة الأبدية لا بد من استخدام عقولنا في الحياة الدنيا في مواضعها اللائقة. ولا بد أيضًا من أن تتغذى مشاعرنا وأفكارنا من المصادر الإلهية لا من الرغبات الشيطانية والنفسانية.

يقول مولانا جلال الدين الرومي -رحمه الله - في هذه المسألة لافتا الانتباه إلى ضرورة توخي الحذر:

"فإن الأفكار الشريرة الشيطانية والخيالات والأوهام التي تزعجنا والتي تنبعث من داخلنا إنما هي أشواك غير مرئية غرزت في قلوبنا. فهذه الأشواك لا تأتي من شخص واحد، بل من آلاف الناس، وتغرز في قلوبنا ".

١٠٦ فاطر، ٣٧.

ولهذا السبب يجب حماية قلوبنا من الوساوس الشيطانية والنفسانية التي من شأنها أن تعطل ملكاتنا الفكرية والحسية والتي تفسد عليها توازنها الروحي. فكما أن جهاز الراديو لا يعطي صوتًا واضحًا عندما لا يتم ضبط تردداته بشكل صحيح، فكذلك القلب يقع في هلاك نتيجة الغفلة والمشاعر الخاطئة. قد تستمر الأسماك للبقاء على قيد الحياة في البحر والكائنات البرية تعيش في خضم الغلاف الجوي النظيف. وهكذا أيضًا يمكن لروح الإنسان أن تعيش في الإقليم المنور بالقرآن والسنة فقط فتكسب السعادة.

فلا شك أن أكبر أفق التفكر الذي يحرر الإنسان من الانخداع بالتزيينات الشيطانية ومن السكر بالملذات غير النفسانية ويجعله صاحب قلب عارف واع هو التفكر في الموت. كما يرد في الآية الكريمة من سورة ق:

﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[١٠٧].

---

١٠٧ ق، ١٩.

وورد في الحديث النبوي الشريف أيضًا:

"أكثروا ذكر هاذم اللذات، يعني الموت"[١٠٨]

الكاملون من الناس إنما هم أولئك الأشخاص الذين استطاعوا أن يحلوا لغز ما تحت التراب، فقاموا بالاستعداد لذلك العالم. فلا يمكن الوقوف على أسرار عالمنا المستقبلي ذلك ما لم يكن هناك تعمق في الفكر والسعي لما تحت التراب. فلا بد لكل ذوي العقل السليم أن يدركوا هذه الرحلة القصيرة الممتدة بين المهد والتابوت في إقليم اليقظة والفكر في عالم القلب كما يليق. فإنما يمكن حل عقدة الاستقبال هذه وإدراكها واستيعابها بالفكر البشري المجرد ما لم يتنور بإرشادات الوحي. وإلا فالهروب من الموت بسبب المخاوف الجافة لا ينفع غير تعب دون جدوى.

يدعو الله ﷻ عباده إلى الجنة. فلهذا السبب ينبهنا ويوقظنا من الوقوع في الغفلة كما أنه سبحانه وتعالى يذكر في سورة المؤمنون من كتابه الكريم:

١٠٨ الترمذي، صفة القيامة، ٢٦.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[109]

وفي هذا الصدد كان يستعيذ محمد ﷺ بالله ﷻ من أن تضيع أفكارنا وأحاسيسنا تحت عبودية العالم، فيقول:

"اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ عملنا.." [110]

فسيدنا النبي محمد ﷺ كان يلفت نظرنا في أدعيته أيضًا إلى التفكر، ويذكرنا بأنه يجب علينا أن نستشعر حاجة المعوزين فنقوم بواجب الحمد والثناء لرب العالمين:

"الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي" [111]

ومن وظائف العبودية المهمة للإنسان أن يتفكر فيما ناله من النعم قبل الاستغراق في النوم فيحمد ربه ﷻ. ويجب التفكر في أن كثيرًا من الناس في العالم يضطجعون جوعى وعطشى ويتعرضون للمخاطر

---

١٠٩ المؤمنون، ١١٥.

١١٠ الترمذي، دعوات، ٧٩.

١١١ مسلم، الذكر، ٦٤ .

ويلتوون من شدة بؤسهم ويقضون لياليهم في العرى محرومين من ملجأ دافئ بسبب الكوارث التي تعرضوا لها بينما نحن ننام شبعانين مطمئنين آمنين في فرشنا المريحة. فهذا الأمر يتطلب منا أن نحمد ربنا على هذه النعم الكبرى، ومن ناحية أخرى يحملنا مسؤولية كبيرة.

وهذا يعني أنه يجب أن تكون لنا محاسبة يومية في حياتنا، وأن لا نهمل هذا ما حيينا.

كما كان سيدنا عمر رضي الله عنه يحاسب نفسه ويقوم بالتحقيق مع ضميره ونفسه، وكان يقول في هذا الصدد:

"حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ".

وحينما يخيم الليل كان يقول:

"لو وقع غنم في الماء فغرق على جانب دجلة سوف يسأل الله عمر عن حسابه ".

وكان يقول أيضًا:

"ماذا عملت اليوم لله يا عمر! "

فيا تُرى كم مرة نقدر أن نعيش مثل هذه المشاعر في اليوم كما ينبغي؟ وكم من الليالي تمكنا من محاسبة

ضمائرنا التي ثقلت نتيجة أعباء التعب في النهار؟ كم نستطيع أن نفكر حيث نضع أيدينا على أصداغنا حول الأسئلة الآتية؛ لماذا خلقنا، من أين نأتي، وإلى أين نذهب، وما مدى استقامة خط حياتنا؟

إلى أى مدى نؤدي واجبات وضروريات ديننا، كم نستطيع أن نترجم تعاليم ربنا واقعا في حياتنا، كم نستطيع أن نلج عالم ثقافة وروح القرآن الذي أنزله الله إلينا رسالة سماوية، كم نستطيع أن نتبع آثار سيدنا ونبينا محمد ﷺ الذي يمثل لنا قدوة حسنة وقرآنًا حيًا، كم نستطيع أن نفكر إلى أي مدى تقترب أحوالنا وأفعالنا وسلوكنا من حياة نبينا التي هي لنا أسوة حسنة يجب اتباعها؟

وأيضًا إلى أي مدى يقلقنا تقصيرنا في هذا المجال؟ أم أننا ضيعنا أثمن كنوزنا الفكرية في داخلنا؟

يضرب لنا القرآن الكريم مثل حبيب النجار الذي تحمل الرجم من أجل تخليص إيمانه. ومثل أصحاب الأخدود الذين أحرقوا في الخنادق، ومثل سحرة فرعون الذين تعرضوا لأبشع أنواع العذاب بعد أن اهتدوا بهداية

ربهم. فعلينا إذًا أن نتفكر هل نستطيع أن ندرك قيمة إيماننا بعد أن هدانا الله للإيمان؟

نسأل الله ربنا ﷻ أن يحفظنا من فقدان الحس واللامبالاة، ومن الانجراف في الإسراف والضياع وراء النعم، والتي من أكبرها نعمة التفكر، ونسأله تعالى أن يؤلف قلوبنا وعقولنا وشعورنا وأفكارنا بمرضاته سبحانه. آمين !..

الإسراف

في كسب المعيشة والإنفاق

من المعلوم أن الكسب غير المشروع وأكل مال الناس بالباطل والطمع وعدم الشبع كلها تشكل أرضية خصبة للاكتئابات النفسية التي يشهدها زماننا بكثرة . وللقضاء على هذه المصائب فمن الضروري أن نولي اهتماما للقواعد الإسلامية التي تحافظ دائما على حقوق الناس وتشجع على كسب المال بالطرق الشرعية . ثم اعلم جيدًا أنه من العزاء الجاف أن تعتبر نفسك سخيًا نظرًا إلى المستوى المتدني الذي يعيشه الناس في مجتمعك من حيث السخاوة . بل يجب علينا أن نتخذ من حال رسول الله ﷺ وأصحابه قدوة في السخاوة والجود والكرم .



الإسراف

في كسب المعيشة والإنفاق

إن هذا العالم الذي نعيش فيه للابتلاء الإلهي قد تزين بعدد لا يحصى من النعم المليئة بمظاهر التجليات الإلهية من حكمة الحق سبحانه وعظمته. فكما أن هذه النعم من شأنها أن ترتقي بمستوى عبودينا لرب العالمين، فيمكن لها أيضا أن تصير سببًا للفتن والخسران إذا غفل العبد عنها. فصرف هذه النعم التي تعد أمانة إلهية في غير ما وضعت له من غايات سامية، أو إهدارها سعيا وراء الشهوات النفسانية والرغبات الشيطانية يكون حماقة وسفها وضربا من ضروب السرف.

وفي الواقع سخر الله سبحانه وتعالى، كل ما في الكون لخدمة البشرية، ولكن أعلن أيضا أنه سيحاسب ويسأل عن كل هذه النعم يوم القيمة. كما أخبر ذلك في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [١١٢]

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [١١٣]

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٤]

إن الإسراف الذي هو عبارة عن البغي والطغيان وتجاوز الحدود الإلهية التي وضعها الله سبحانه وتعالى في استخدام النعم له صور شتى، ولعل من أشدها مأساوية أن تتحول السعادة الأخروية الأبدية إلى خسران دائم.

ويزعم ابن آدم بسبب غفلته عادة أن الإسراف هو الإنفاق غير المتزن للنعم المادية. وبالتالي يحصر

١١٢ التكاثر، ٨ .

١١٣ آل عمران، ١٨٦ .

١١٤ المؤمنون، ١١٥ .

مفهوم الإسراف بدائرة ضيقة في الأذهان. ولكن كما حرم الإسراف في النعم المادية كذلك حرم في الأمور المعنوية.

وفي الحقيقة فإن الإسراف والغلو وعدم الاتزان في استعمال النعم المعنوية يقتضي وبالًا ثقيلًا وخسرانًا أليمًا.

فإن من أهم أنواع الإسراف في الأمور المادية والمعنوية والذي يمكن أن يسبب خسران سعادة الآخرة هو الإسراف الذي يكون في كسب المعيشة والنفقات اليومية والإنفاق.

والله سبحانه وتعالى قدر أرزاق جميع عباده. كما أن الآيات تشير بشكل صريح إلى أن رزق المخلوقات كلها مضمون من طرف الله سبحانه وتعالى في قوله:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْاِنْسَ اِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَٓا اُر۪يدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَٓا اُر۪يدُ اَنْ يُطْعِمُونِ. اِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَت۪ينُ﴾ [115]

١١٥ الذاريات، ٥٦-٥٨ .

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اَللّٰهُ يَرْزُقُهَا وَاِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ١١٦

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ١١٧

يعلن الله تعالى في هذه الآيات الكريمة عن علمه وقدرته ورحمته غير المتناهية. بينما نحن في الواقع لا يمكننا حتى أن نتصور عدد الكائنات الحية التي تعيش في أعماق المحيطات وفي ظلمات الأرض وبواطنها الخفية، فالله تعالى عنده علم جميع المعلومات المتعلقة بها وعنده أيضًا ما يتعلق بتغذيتها وطرق كسب المعيشة لها. وما أعظمها من قدرة هائلة !

وفي هذا الصدد بينما نحن نسعى من جانب لتأمين رزقنا ينبغي لنا أن نتفكر كيف يجب أن تكون علاقتنا مع "الرزاق" أي واهب الرزق علاقة قوية روحية متأصلة...

---

١١٦ العنكبوت، ٦٠.

١١٧ هود، ٦.

ما أحسن تعبير الأحاديث النبوية عن أن الله تعالى متكفل برزق خلقه، وأن هذا هو مظهر التجليات الإلهية لقدرته سبحانه:

"لا تيأسا من الرزق ما تهززت رءوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر، ثم يرزقه الله ﷻ " [118]

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

" يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يده" [119]

وفي هذا الصدد فإن الانجراف إلى الإفراط نتيجة قلق مفرط فيما يتعلق بتوفير القوت والمعيشة هو طموح نفساني يجب الحذر منه. فليس علينا إلا السعي آخذين بالأسباب من أجل كسب رزقنا الذي قدره الله تعالى لنا من طرق الكسب الحلال. وبعد ذلك ما علينا إلا أن نعيش راضين عن ما قدره الله لنا من خير فنتلقاه خيرًا لنا. فالإسراف في توفير المعيشة متخطيًا الحدود

---

١١٨ ابن ماجه، الزهد، ١٤ .

١١٩ البخاري، التوحيد، ٢٢ .

الشرعية مذموم أيضًا حيث يتم ذلك من خلال قلق لا داعي له في تأمين الرزق متناسيًا الرزاق تعالى، ومنحرفًا إلى طرق محرمة من أجل زيادة الكسب.

ومع ذلك فمن الضروري الامتناع عن التفكير النفساني الذي يؤدي بالنتيجة إلى الكسل، حيث يقول البعض: "لا داعي للتعب فإن أرزاقنا قد قدرت في الأزل تأتي إلينا شئنا أم أبينا ". لأن ذلك يعني الوقوع في التفريط بينما كنا نهرب من الإفراط.

فإن الله يعلن ويخبر عن الحالة الرهيبة في الآخرة لأولئك الذين يظهرون الطموح والبخل في توفير المعيشة في سورة الهمزة من القرآن الكريم:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[١٢٠]

١٢٠ الهمزة، ١-٩ .

فقد كان النبي ﷺ يعرب عن قلقه من أن الأمة قد تبتعد عن الاعتدال فتميل إلى الإسراف، حيث جاء:

عن عطاء بن يسار أنه سمع أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يحدث أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله، فقال:

"إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، فقال رجل: يا رسول الله، أويأتي الخير بالشر"[١٢١]

وكما لا يجوز الاشتغال بأمور المعيشة بحيث يؤدي ذلك إلى إهمال العبادات والخدمات الاجتماعية، فكذلك يحرم التفريط واللامبالاة والكسل في الإنفاق على الأسرة بطريقة تؤدي إلى حرمان الأسرة وبؤسها. فالكسب المبارك والمقبول والمرغوب فيه هو ذلك الكسب المتوازن الذي من شأنه أن يجلب السعادة للأسرة مع أسلوب العمل المتوازن الذي لا يهمل واجب العبادة والخدمات الاجتماعية.

١٢١ البخاري، الزكاة، ٤٧.

ومن ناحية أخرى يجب أن يكون كسب الثروة الدنيوية من أجل الوصول إلى سلامة الدنيا وسعادة الآخرة بحيث يتم توزيع ما تم كسبه كإنفاق وإحسان على المحتاجين والفقراء، بدءًا من الأقرباء إلى كل العاجزين في المجتمع. لأنه يجب على المؤمن أن تكون السخاوة والكرم طبيعته الأصيلة.

فالرحمة هي أعظم ثمار الإيمان. وأهم مظهر من مظاهر الرحمة أن يقوم صاحب الرحمة لمساعدة المحتاجين بكل ما لديه من وسائل لتعويضهم عن حرمانهم. وبعبارة أخرى أن يمنح ما أعطاه الله سبحانه وتعالى من نعم لمن حرموا منها.

وما أجمل كلمات مولانا جلال الدين الرومي -رحمه الله -:

"الحياة الدنيا ليست أكثر من مجرد حُلْم. وامتلاك ثروة في الدنيا مثل العثور على كنز في المنامٍ. وستبقى ملكية الأموال الدنيوية في الدنيا تنتقل من جيل إلى جيل."

ومن أجل ذلك يعد ترك الأموال والأملاك للورثة دون استهلاكها عملاً مجانبا للعقل السليم، كمن يترك ثروة في يد ورثة حرموا من التربية المعنوية تمامًا، فلا يدرى كيف ولا أين سيصرفونها، وفي النهاية سيتحمل المورث مسؤولية هذه الثروة وحسابها في الآخرة.. كما ورد في الآية الكريمة من سورة التوبة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١٢٢]

سأل النبي ﷺ أصحابه ذات يوم فقال:

"أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟

قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه.

قال: **"فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر"** [١٢٣]

---

١٢٢ التوبة، ٣٤.

١٢٣ البخاري، الرقاق، ١٢ .

وفي هذا الصدد يقدم الشيخ سعدي التوصيات التالية فيما يتعلق باستخدام النعم:

"لا تعتقد أنك سوف ترتقي بجمع المال !. فإن رائحة المياه الراكدة سيئة نتنة. حاول أن تتبرع وتنفق. لأن السماء تساعد المياه الجارية حيث تمطر السماء وترسل سيولًا، فلا تجففه.

فالناس العقلاء يأخذون أموالهم معهم عندما يذهبون إلى الأخرة، أي إنهم ينفقونها مسبقا في سبيل الله ﷻ. وإنما البخلاء هم الذين يتركون أموالهم في هذه الحياة الدنيا متحسرين عليها ".

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

"جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال:

"أنْ تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان" [١٢٤]

١٢٤ البخاري، الزكاة، ١١.

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يقرأ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} فقال:

"يقولُ ابنُ آدمَ: مالي، مَالي، وهَلْ لَكَ يا ابْن آدَمَ مِنْ مَالِكَ إلا ما أكلتَ فأفْنَيت، أو لَبِستَ فأبْلَيْتَ، أو تصَدَّقْتَ فأمْضَيْتَ" [125]

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ:

"من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا" [126]

"طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنَعَ" [127]

"قد أفلح من أسلم، ورُزِقَ كفافا، وقنَّعه الله بما آتاه" [128]

يقول الصحابي الجليل أبو أمامة إياس بن ثعلبة الأنصاري رضي الله عنه ذات يوم: ذكر أصحاب رسول الله ﷺ

---

١٢٥ مسلم، الزهد والرقائق، ٣ – ٤/ ٢٩٥٨ .

١٢٦ الترمذي، الزهد، ٣٤.

١٢٧ الترمذي، الزهد، ٣٥.

١٢٨ مسلم، الزكاة، ١٢٥ .

يوما عنده الدنيا فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: **"ألا تسمعون، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان"** [١٢٩]

كما أن ثعلبة كان في بداية أمره رجلًا صالحًا، فطمع أن يكون ثريًا من شدة حرصه على الدنيا ولم يستمع إلى تحذيرات النبي وإرشاداته فوقع في الهلاك والخسران حتى صار عبرة وعظة كبيرة للمؤمنين الكاملين.

عن عثمان بن عفان أن النبي ﷺ قال:

"ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال، بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلف الخبز والماء" [١٣٠]

وكان رسول الله ﷺ يريد للمؤمنين أن يعيشوا حياة بعيدة عن الإسراف، حياة قانعة متواضعة، وفي نفس الوقت كان يمثل قدوة حسنة في الأمر من خلال تطبيقاته اليومية. وقد انعكس ذلك على أدعيته ﷺ:

---

١٢٩ أبو داود، الترجل، ٢.

١٣٠ الترمذي، الزهد، ٣٠.

"اللهم ارزق آل محمد قوتًا" [١٣١]

من المعلوم أن الكسب غير المشروع، وأكل مال الغير بالباطل، والطمع، وعدم الشبع، كلها تشكل الأرضية للاكتئابات النفسية التي يشهدها زماننا بكثرة. وللقضاء على هذه المصائب بات من الضروري أن نولي اهتماما للقواعد الإسلامية التي تحافظ دائما على حقوق الناس وتشجع على كسب المال بالطرق الشرعية. لأن حلِّية الكسب وحرمته تؤثر على عبادات المرء ومعاملاته فتؤثر على قدره المقدر له. فهذا هو الدافع الأساسي وراء سلوك أولادنا الإيجابي أو السلبي. ولذلك إذا أردنا أن ينشأ أبناؤنا مثاليين وبعيدين عن مخاطر التأثيرات السلبية يجب علينا أولا أن نولي اهتماما لحلية أرباحنا.

فإذا كانت القلوب مطيعة لأوامر الله وسنة رسوله فستصبح الأبدان منبعًا للفيوضات الربانية والخير الكثير. أما الأبدان التي تلوثت بالشبهات والمحرمات فتكون منبعًا للشر والمنكرات.

---

١٣١ البخاري، الرقاق، ١٧.

وفي هذا الصدد فإن أولئك الذين يحبون الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يتبعون نصائحه وتوصياته مخلصين ويهتمون بالرزق الحلال متجنبين الإسراف والشح فسوف يكونون معه في الدار الآخرة وينالون السعادة الأبدية بمعيته عليه الصلاة والسلام.

ومن ناحية أخرى فإن احتياجات ومقتضيات كل عهد مختلفة. فمن ثم ينبغي معالجة هذه الاحتياجات وفقا لأهميتها في الترتيب. فتقديم مساعدة في غير محلها يعد نوعًا من الإسراف أيضًا. فعلى سبيل المثال بينما يحتاج المجتمع إلى جيل متحلٍ بالإيمان وحب الوطن والكرامة الإنسانية فإن الإنفاقَ على أمور أدنى من ذلك درجةً يكون إسرافًا.

وفي الوقت الذي تضعف فيه الحياة الدينية والأخلاق والمشاعر المعنوية فإن أهم حاجة هي العمل على تقوية وترويج هذه الأمور، والسعي للارتقاء بمستوى التعليم الديني والأخلاقي والمعنوي.

فالله سبحانه وتعالى يريد منا، حين ننفق ونتصدق، أن نحدد أكثر المحتاجين فنبدأ بهم، وأن يكون التعرف

عليهم سمة أصيلة فينا نحن المؤمنين. فيقول سبحانه في ذلك:

﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [١٣٢]

فإن إعطاء شخص أكثر من حاجته بسبب قرابته، في الوقت الذي نجد فيه من هم أكثر حاجة منه، يكون من الإسراف أيضًا. ولهذا السبب فمن الضروري الإنفاق على الفقراء حسب احتياجاتهم.

يقول مولانا جلال الدين الرومي -قدس سره -في هذا الصدد:

"كم من أصحاب الثروات الطائلة كان من الأفضل لهم ألا يعطوا شيئًا من أموالهم لأولئك الذين لا يستحقونها. فلذلك أنفق الأموال التي أعطاك الله إياها

١٣٢ البقرة، ٢٧٣.

كما يأمر الله سبحانه. فإن الإنفاق في غير موضعه يشبه توزيع العبد العاصي لأملاك السلطان على المتمردين على أنه إحسان وفضل منه".

وعلى وجه الخصوص ينبغي للمسؤولين في المنظمات الخيرية مثل المؤسسات الوقفية والجمعيات أن يأخذوا بعين الاعتبار هذا الأمر عند توزيعهم للمساعدات، فيتصرفون بطريقة أكثر دقة وحساسية أثناء التبرع الخيري.

وينبغي أيضًا أن يؤخذ بعين الاعتبار أن الموقف الذي يمكن اعتباره إسرافًا أو شحًا لشخص ما قد لا يكون كذلك بالنسبة لشخص آخر. لأن إمكانيات كل من يملك نعمة مادية كانت أو معنوية مختلفة.

فلذلك وُضِع مفهوم "**الوسع**"، يعني الطاقة والقدرة للعبد كأساس للتكليف والمسؤولية أمام الله تعالى كما ورد في الآية التالية:

﴿**لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها...**﴾ [١٣٣]

١٣٣ البقرة، ٢٨٦.

وهذا يدل على أن مسؤولية كل واحد في الميزان الإلهي مختلفة تمامًا عن مسؤولية الآخرين.

ولذلك، فإن المحاولة لتحقيق أقصى قدر من المساعدات الممنوحة تعد من مقتضيات الإيمان الكامل.ومن المؤكد أن دينًا كبيرًا ومسؤولية عظيمة سوف نتكبدها في الميزان الإلهي بسبب الخير الذي لم يتم تقديمه وكان بالإمكان القيام به.

ثم اعلم جيدًا أنه من العزاء الجاف أن تعتبر نفسك سخيًا نظرًا إلى المستوى المتدني الذي يعيشه الناس في مجتمعك من حيث السخاوة. بل يجب علينا أن نتخذ حال رسول الله ﷺ وأصحابه المتميزين قدوة لنا في السخاوة والجود والكرم.

لأنه إذا تم أخذ مفهوم المساعدة والسخاوة لدى عامة الناس بعين الاعتبار فقد يؤدي الأمر إلى أن يكتب العبد عند الله سبحانه مجرمًا وشحيحًا بدلًا من أن يكتب كريمًا وسخيًا نظرًا إلى حجم المساعدات الضئيلة التي قدمها مقارنة بما يملك من إمكانيات هائلة.

فنسأل الحق سبحانه أن يحفظنا من الوقوع في المحرمات والشبهات. وأن يقي قلوبنا من الإسراف والشح. وأن ييسر لنا المثول أمامه بوجوه بيض يوم العرض عليه متصرفين فيما أنعم الله علينا في مرضاته سبحانه وتعالى.

آمين...

الإسراف

في الصحة والأكل والشرب

ثمة في حياتنا اليومية إسراف كبير للمال، فيما يتعلق بتناول الطعام والشراب وخاصة في حفلات الزفاف والولائم، ففيها ما تقشعر له الضمائر الحية. من التجاوزات والمخالفات مثل إعداد الموائد الباهرة بهدف التفاخر والغرور والعجب وإظهار المكانة، ودفع قسط للشراهة في الوجبات على طراز البوفيه المفتوحة، وارتداء الملابس ذات العلامات التجارية الفاخرة، ومن المؤكد أن تتحول هذه الأشكال الصارخة من الإسراف إلى صرخات نادمة في أرض المحشر. لأن كل هذه الأمور سيأتي حسابها وسوف نسأل عنها .



الإسراف

في الصحة والأكل والشرب

إن نعمة الصحة واحدة من أعظم النعم الإلهية التي لا تُقدَّر حق قدرها. فإن النبي ﷺ قال:

"نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ"[134]

وأشار بقوله إلى إهمال وغفلة عموم الخلق عن ذلك.

فإن النبي ﷺ يقوم بتحذيرنا من أن نضيع ما نملكه من هذه النعمة العظيمة فنقع في الندامة والخسران في نهاية المطاف. وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول:

"إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك" [135]

فإن لأبداننا علينا حقوقًا، لأنها أمانة الله عز وجل التي أعطيناها. ولأن كثيرا من العبادات تتوقف على بدن

---

١٣٤ البخاري، الرقاق، ١.

١٣٥ البخاري، الرقاق، ٣.

صحيح مادة ومعنى. فالعبادات لكي تؤدى على أكمل وجه تحتاج إلى أبدان صحيحة. فهل من الممكن أن تقام صلاة ويؤدَّى صيام بطمأنينة وسلامة إذا لم يتمتع المرء بصحة بدنية؟ فجميع العبادات والخدمات التي تقرب العبد من الحق سبحانه وتعالى قلبًا كلها تؤدى بنعمة الصحة. فحينما تختل الصحة يضيع معها قوام العبادات والخدمات.

ومن هذه الناحية فما دمنا نتمتع بالصحة والعافية فيجب علينا أن نسعى جاهدين لإقامة عباداتنا على أكمل وجه شكرًا لهذه النعمة.

فنعمة الصحة كسائر النعم إذا لم تراعَ فيها الأوامر الإلهية لا يمكن الخلاص من إسرافها وإضاعتها. فإفساد الصحة بدءًا من سيجارة، يراها الكثيرون أمرًا بسيطًا، وانتهاءً بالكبائر والموبقات، كل ذلك يُعد إسرافًا مقززا. ومن الأمور التي يتحتم علينا القيام بها أخذ الحذر والحيطة كما تمليه التعاليم الشرعية والعقلية من أجل تفادي الحوادث الناتجة عن السخونة والبرودة والإهمال في المرور حتى نحمي هذه النعمة من الإسراف والضياع.

وقد أرشدنا ديننا الحنيف إلى طرق عديدة مادية ومعنوية من أجل الحفاظ على صحتنا. فأمرنا بالاعتدال في الأكل والشرب، وبالابتعاد عن مواقع انتشار الأمراض المعدية، وبعدم خروج من فيها من الناس. وقد أشار في العديد من مثل هذه الأوامر والتوصيات إلى المبادئ الأساسية للطب الوقائي.

وبجانب هذه التدابير المادية أوصانا ديننا الحنيف بأن نراجع الوسائل المعنوية، كالتصدق والإنفاق على الفقراء لوجه الله ﷻ، فبذلك نسلم من البلايا بإذن الله. ومن باب التدابير الوقائية أيضًا يقول لنا رسول الله ﷺ:

"يُصبح على كل سُلَامَى من أحدكم صدقة؛ فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى" [١٣٦]

وفي الواقع إن كون الإنسان في صحة وعافية نعمة كبيرة تقتضي شكر لله تعالى عليها. وقد يكون هذا

١٣٦ مسلم، صلاة المسافرين وقصرها، ١٣.

الشكر بالتصدق على الفقراء بالمال من الجهة المادية، وقد يوفى هذا الشكر أيضًا بكل خير من شأنه أن يجلب رضى الله ﷻ من ذكر الله وعبادته من الجهة المعنوية.

وقد صرف الصحابة الكرام الذين يمثلون لنا أسوة حسنة بسبب فضائلهم العالية جميع النعم التي وهبهم الله سبحانه وتعالى إياها في سبيله على أنها رأس مال آخرتهم، ساعين في ذلك بكل ما أوتوا من طاقة، فبارك الله سبحانه جهودهم الجبارة التي كانت أشبه بالسيول العظيمة التي تنفع أينما حلت وتخلف وراءها الخير والبركة والخصب والنماء، فكانوا لا يعرفون في حياتهم طراز الترف والسرف والشره والرياء التي هي من أمراض زماننا المزمنة. لأنهم كانوا يعيشون بشعور "إن قصور نفوسهم التي يأوون إليها ستكون مقابرهم".

ومن ناحية أخرى فإن من المؤكد أن البدن الذي أُكرمنا به كأمانة لفترة معينة قصيرة إذا لم يُعط الغذاء بقدر كاف -بسبب البخل أو غيره- أنه سوف يصاب بضعف وعلل مختلفة. وعلى خلاف ذلك فإذا أُطعم البدن بشكل خانق فإنه قد يؤدي إلى انهياره أيضًا، فهذا

الأمر كما يكون بتغذية شيء مفرط من حلال فقد يكون بتغذيته من حرام كذلك، فيؤدي حينئذ إلى فساد في الصحة المعنوية كما يؤدي إلى فساد في الصحة المادية.

وتتغير حساسية الناس في الأكل والشرب حسب اختلافهم أيضا في مستواهم الروحي. فالأكل فوق الشبع على سبيل المثال سرف في الشريعة. أما في الطريقة فإن الأكل إلى الشبع سرف. وأما في الحقيقة فإن الأكل بالقدر الكافي غافلًا عن معية الله تعالى سرف. وفي درجة العارفين بالله سبحانه وتعالى علاوة على كل هذه الأمور فإنه إذا كان الآكل غافلًا عن التجليات الإلهية فيما وهب الله سبحانه من نعم فأكله سرف.

فقصة سيدنا الخضر عليه السلام مع السيد عبد الخالق الغجدواني –رحمه الله– عبرة عظيمة لمن يعتبر، ففي إحدى زيارته له جرى بينهما هذا الحوار فيما يتعلق بالأكل والشرب:

امتنع الخضر عليه السلام من أكل ما قدمه له السيد عبد الخالق الغجدواني من أطعمة وتأخر عن المأدبة. فسأله السيد عبد الخالق الغجدواني وهو في حيرة:

"- إن هذا الطعام حلال، فلماذا لا تأكلون منه؟

فأجابه سيدنا الخضر عليه السلام:

- نعم إن الطعام من حلال، ولكن الطباخ طبخه وهو غضبان وغافل".

فيتبين من خلال ما ذكرنا أن الحالة النفسية للطباخ لها أثر على روحانية أحوالنا وأعمالنا وعباداتنا فضلاً عن كونه من حلال أو حرام. فمن هنا تظهر أهمية الموقف الذي يجب أن نتخذه تجاه الغذاء.

ولكننا اليوم للأسف الشديد لا نأخذ بعين الاعتبار الآثار الضارة لتلك الأغذية على جانبنا الروحي، فمن هذه الأغذية ما يباع في العراء فتتعلق به حقوق المحتاجين والمحرومين، بسبب ما يصل إليهم من شهي منظرها وطيب رائحتها. فالحقيقة أن مصير الغذاء الذي نتناوله يعني الطريقة الروحية التي تسيطر على أحاسيسنا ومشاعرنا.

إن للقمة الحلال مكانة مهمة في تصفية القلب. كما يقول السيد عبد القادر الجيلاني -رحمه الله-:

"إن تناول الطعام الحرام يقتل القلب كما أن الغذاء الحلال يحيي القلب. هناك لقمة تشغلك بالدنيا وأخرى تشغلك بالآخرة. ولقمة أخرى تجعلك تتوق إلى الله تعالى".

وفي ذلك يقول مولانا جلال الدين الرومي –رحمه الله–:

"ليلة البارحة نزلت إلى معدتي عدة لقيمات مشبوهة، فسدت طريق الإلهام علي".

فهذا يدل على أنه كما يجب أخذ الحيطة في الجانب المادي للقمة فكذلك يجب الانتباه إلى الحال المعنوي لها.

وفي ذلك يقول مولانا جلال الدين الرومي –رحمه الله– أيضًا:

"لا تفرط في تغذية بَشَرَتِكَ ولا تبالغ في تحسينها. لأنها ضحية ستودع في النهاية إلى التراب. وإنما اجتهد في إطعام قلبك ! لأنه هو الذي سيرتقي إلى العلى ليتم تكريمه هناك.

قلل من تغذية جسمك بالأطعمة الدسمة والشهية. لأن من يغذيه بأكثر من اللازم يقع في نهاية المطاف في الرغبات الشهوانية فيذل ويخزى".

إن اتخاذ موقف مسرف في مثل هذا الموضوع الحساس هو بالطبع غير متوافق مع شخصية المؤمن.

وقد أعرب سلفنا الصالح عن أهمية الامتناع عن الإسراف في الأكل والشرب من أجل حياة صحية من الناحية المادية والمعنوية بقولهم:

"إن الله تعالى قد لخص المعرفة الطبية كلها في نصف آية:

﴿...وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ...﴾ [137] [138]

وقد قال النبي ﷺ:

"كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة" [139]

محددًا بذلك الحدود المشروعة في تلبية الاحتياجات البشرية.

---

١٣٧ الأعراف، ٣١.

١٣٨ أنظر: تفسير ابن كثير، جـ ٢، ص ٢١٩ .

١٣٩ البخاري، اللباس، ١.

وقد قال رسول الله ﷺ في حديث آخر:

"**إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت**" [١٤٠]

وقد رفض في ديننا الحالة التي يعبر عنها الشعب بقولهم "حالة الشراهة أو الجشع". وهكذا يتبين أيضا أن سعة الحال وامتلاك المال لا يجيز لصاحبه كثرة الاستهلاك، فالتوازن والاعتدال هو القاعدة المتبعة دائما.

وفي رواية عن جابر بن عبدالله أنه قال:

"رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحمًا معلقًا في يدي فقال: ماهذا ياجابر؟

قلت: اشتهيت لحما فاشتريته.

فقال عمر رضي الله عنه: أو كلما اشتهيت ياجابر اشتريت؟ أَما تخاف هذه الآية يا جابر:

﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا**﴾ " [١٤١] [١٤٢]

---

١٤٠ ابن ماجة، الأطعمة، ٥١ .

١٤١ الأحقاف، ٢٠.

١٤٢ ابن حنبل، الزهد، ص، ١٢٤ .

كما أن سيدنا محمدًا ﷺ أعرب بعبارة وجيزة فيما يتعلق بمراعاة المقاييس الواجبة في تناول الطعام والشراب وتأثير هذه المقاييس على الصحة عمومًا بقوله:

" ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلًا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه " [١٤٣]

ما أجمل هذه الحادثة التالية التي وقعت في عصر السعادة تعبيرًا عن بركة وآثار الاتباع للتعاليم النبوية في الأكل والشرب:

كان فيما أرسله مقوقس الإسكندرية من هدايا لنبينا محمد ﷺ طبيب، فقال له النبي ﷺ:

"ارجع إلى أهلك، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع" [١٤٤]

---

١٤٣ الترمذي، الزهد، ٤٧.

١٤٤ الحلبي، إنسان العيون، جـ٣ ، ص ٣٥٢، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية ،١٤٢٧هـ .

تحتوى هذه البيانات النبوية على وصفات العلاج لعديد من الأمراض الناجمة عن جنون الاستهلاك المفرط في عصرنا.

وفي هذا الصدد ينصح سيدنا عمر رضي الله عنه بالتوصيات التالية، فيقول:

"إياكم والبطنة في الطعام والشراب! فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة؛ وعليكم بالقصد فيهما! فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف؛ وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه." [١٤٥]

ويصف ثيفينوت، وهو رحالة غربي، في كتابه الذي نشر في باريس عام ١٦٦٥ حال أجدادنا الذين قدموا تضحية كبيرة نصرة للإسلام، وحملوا راية الدفاع عنه لعدة قرون، وحياتهم اليومية من الاعتدال في نظافتهم وبساطتهم فيما يتعلق بالأكل والشرب، وكيف قاموا

١٤٥ علي بالمتقي، كنز العمال ، جـ ١٥، ص ٤٣٣ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

بتأسيس مجتمع صحيح البنية والاستقامة، فيعرب عن هذا كله بقوله:

"الأتراك يعيشون بشكل جيد ونادرًا ما يمرضون. فلا تجد عندهم أمراض الكلى، ولا كثيرًا من الأمراض الخطيرة الأخرى المنتشرة في بلادنا، بل إنهم لا يعرفون حتى أسماء هذه الأمراض. أعتقد أن أحد الأسباب الرئيسية للصحة العظيمة للأتراك هو أنهم يغتسلون دائمًا، ويعتدلون في الأكل والشرب. فحينما يأكلون يأكلون قليلًا، وما يأكلونه ليست أشياء مختلطة مثلما يفعل المسيحيون" .

كما ورد في كلمة من كلام الكبار

"على الإنسان أن لا يعيش من أجل الغذاء، بل عليه تناول الطعام من أجل أن يعيش ! ".

وفي الوقت نفسه فإن هذا المبدأ سمة فارقة للمؤمنين. لأن في الحديث النبوي الآتي ذكره والمبين دستور الأخلاق الإسلامية في هذه المسألة عبر كثيرة يجب الانتباه لها:

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال:

"الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معى واحد" [١٤٦]

ففي رواية أنه ﷺ قال هذا الكلام بعد أن أضاف كافرا، فشرب حلاب سبع شياه، ثم أسلم من الغد، فشرب حلاب شاة، ولم يستتم حلاب الثانية.

فيريد الله عز وجل منا أن نعتدل في الأكل والشرب وأن نبتعد عن أسلوب الملحدين فيه، فينذرنا في ذلك بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [١٤٧]

كل السلوكيات التي تذهب ببركة الطعام تدخل في دائرة السرف. فيعد من جملة السرف وكفران النعمة لمن

---

١٤٦ مسلم، الأشربة، رقم ٢٠٦٠.
١٤٧ محمد، ١٢.

وهب لنا هذه النعم كلها أن نبدأ الأكل دون غسل الأيدي والتسمية عليه ودون شكر الله سبحانه وتعالى.

كما ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال:

"بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده" [١٤٨]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال؛ قال رسول الله ﷺ:

"من نام وفي يده غمر، ولم يغسله، فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه" [١٤٩]

إن الدقة التي أظهرها أسلافنا فيما يتعلق بغسل اليدين قبل الطعام وبعده لجديرة بالتقدير حقًا. وقد اعترف ريكوت الذي كان يعمل في سفارة بريطانيا في اسطنبول في القرن السابع عشر، فيما كتبه عن حساسية أسلافنا في النظافة، وكان في الحقيقة عدوا للأتراك، حيث يقول:

"كان غسل اليدين قبل وبعد وجبة الطعام شائعا جدا بين الأتراك، لدرجة أن الناس كانوا يضربون المثل في

---

١٤٨ الترمذي، الأطعمة، ٣٩ .

١٤٩ أبو داود، الأطعمة، ٥٣ .

ذلك، فيقولون: إن الله خلق الغذاء ليكون وسيلة لغسل اليدين" .

هذا الامتثال الذي يظهرونه للطهارة في الأكل والشرب مع كونه سببًا لازدياد بركات النعم فإنه يكون وسيلة أيضًا إلى سكينة قلبية وصحة مادية ومعنوية. وبالإضافة إلى ذلك فإن الأطعمة التي يُسَمَّى عليها تكون مصدرًا للشفاء، بينما تكون الأطعمة التي لا يُسَمَّى عليها سببًا للقلق والغفلة والثقل. وقد قال سيدنا النبي ﷺ بناء على هذه الحكمة:

"إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء" [١٥٠]

يروى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل طعاما في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي

١٥٠ مسلم، الأشربة، ١٠٣.

فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ:

"أما إنه لو كان قال: بسم الله، لكفاكم، فإذا أكل أحدكم طعاما فليقل: بسم الله، فإن نسي أن يقول بسم الله في أوله فليقل: بسم الله في أوله وآخره" [١٥١]

ومن آداب الشرب أيضًا إذا شربنا ماء أو نحوه أن نسمي في بدايته، وأن نشربه بثلاثة أنفاس، وأن نقول: "**الحمد لله**" في نهايته، فكان رسول الله ﷺ يشرب الماء بثلاثة أنفاس، ويقول في ذلك:

"لا تشربوا واحدًا كشرب البعير، ولكن اشربوا مثنى وثلاث، وسموا إذا أنتم شربتم، واحمدوا إذا أنتم رفعتم" [١٥٢]

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشرب، فقال رجل: القذاة أراها في الإناء، قال: "**أهرقها**"، قال: فإني لا أروى من نَفَسٍ واحدٍ، قال: "**فأبِن القدح إذن عن فيك**" [١٥٣]

١٥١ ابن ماجة، الأطعمة، ٧ .

١٥٢ الترمذي، الأشربة، ١٣ .

١٥٣ الترمذي، الأشربة، ١٥/ ١٨٨٧ .

ومن أشكال السرف عدم الاجتماع على الطعام، وانفراد كل شخص بطعامه، فهذا مما يُذهِب بركة الطعام. لأن النبي ﷺ الذي كان يقول:

"**الجماعة رحمة، والفُرقة عذاب** "[١٥٤] يوصينا بأن نأكل جماعة أيضًا.

يروي وحشي بن حرب عن أبيه عن جده: أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع، قال:

"**فلعلكم تفترقون**" قالوا: نعم، قال:

"**فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه**" [١٥٥]

ورد عن النبي ﷺ أيضًا أنه قال:

"**إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها، فليمط ما كان بها من أذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه البركة** "[١٥٦]

---

١٥٤ أحمد، مسند، جـ ٤ ، ص، ٢٧٨.

١٥٥ أبو داود، الأطعمة، ١٤ .

١٥٦ مسلم، الأشربة، ١٣٦ .

للأسف الشديد في حياتنا اليومية وخاصة في حفلات الزفاف والولائم، نعيش كثيرًا من أشكال الإسراف التي تقشعر لها الضمائر الحية، وقد يفوق عد وإحصاء هذه الإسرافات أحيانًا طاقة البشر. فلو أخذنا الإسراف فقط في استهلاك الخبز في مجتمعنا كمقياس وقارنَّا الأنواع الأخرى من الإسراف، فإن الأرقام التي ستظهر ستشكل السيل المتصاعد من الصراخ الذي يملأ أرض المحشر.

ومن المؤكد أن التجاوزات الكثيرة التي تعيشها مجتمعاتنا، مثل التنافس في إعداد الموائد الباهرة بهدف الفخر والغرور والعجب وإظهار السلطة، ودفع قسط للشراهة في الوجبات على طراز البوفيه المفتوحة، وارتداء الملابس ذات العلامات التجارية الفاخرة، من المؤكد أن كل هذا سيتحول إلى صرخات نادمة وآهات معذبة في أرض المحشر. لأن كل هذه الأمور سيأتي حسابها أمامنا، وسوف نُسأل عنها.

فإن حفلات الزفاف والموائد مهمة لتعزيز مشاعر الأخوة. ولكن للأسف الشديد فإن المراسم التي يتم إجراؤها من أجل التفاخر والتعاظم لا تعزز روابط

الإخاء، ولكنها على العكس تؤدي إلى خسارة فادحة بإحالة الناس إلى مشاعر سيئة مثل الفخر والغطرسة والغيرة والحسد. فإن مثل هذه المجتمعات بعيدة عن الرحمة والبركات الإلهية.

فخلاصة القول: إن نهاية الحياة الأنانية في السرف خسارة وندامة كبيرة كما يقول الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[١٥٧]

وقد ثبت عن النبي ﷺ في شأن الحساب أنه قال:

"لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم" [١٥٨]

ذكرنا النبي ﷺ بذلك أننا سوف نحاسب على كل النعم، وأنه يجب أن لا نبقى غافلين عما يجري.

---

١٥٧ الإسراء، ٢٧.

١٥٨ الترمذي، صفة القيامة، ١ .

وفي هذا الصدد ينبغي ألا يندَّ عن أذهاننا حقا أنَّ تجاوز الحد في الأكل والشرب إسراف، وتضييع نعمة الصحة إسراف، وإهدار نعمة العمر لقضاء حياة فارغة فيما لا يعني إسراف أيضًا. وعدم المحافظة على الأمانات التي بين أيدينا وتضييعها وتوجيه أفكارنا ومشاعرنا إلى جهات خاطئة من السرف أيضًا. ولا سيما تضييع الإنسان في مجال التربية، فهو واحد من أعظم أوجه السرف، بإهمال بناء شخصيته أو بالتساهل في تربيته تربية ترتقي به إلى أن يكون أشرف المخلوقات، فلذلك إن " إسراف الإنسان " من أكبر مظاهر السرف.

وفي الواقع، فإن من الواجبات الأساسية للآباء والأمهات تربية أولادهم في ظلال القرآن والسنة، فهذه ضرورة أساسية لهم حتى لا تضيع الحياة المعنوية لأولادهم، وفي الوقت نفسه فهذا يدل على مستوى اتصالاتنا والتزاماتنا واتباعنا لقرآننا ونبينا محمد ﷺ. وفي ذلك قال النبي ﷺ:

"تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه" [١٥٩]

١٥٩ مالك، موطأ، الجامع، باب القدر ٣.

وفي هذا الصدد ينبغي أن نحاول زيادة أنسنا بالقرآن الكريم. وينبغي لنا أيضا أن نبذل جهودا جادة في مجال التعليم الروحي والأخلاقي على وجه الخصوص لأبنائنا، فهذا مما أهمل في حياتهم التعليمية.

لأن أغلى ما يمكننا أن نتركه لأطفالنا من ميراث هو ثقافة القرآن والسنة. فيجب أن نسعى لتربية أطفالنا على الأخلاق النبوية التي تعني تطبيق القرآن الكريم في حياتهم مع المحبة والرحمة. وينبغي ألا ندمر مصيرهم الأبدي بسبب المخاوف المتعلقة بمستقبل دنياهم الفانية.

وفي هذا الصدد إذا كنا نحب أطفالنا بحق، وإذا أردنا حمايتهم من جميع أنواع المصائب، ونود أن نكون معهم في الآخرة، فعلينا أن نبذل قصارى جهدنا ساعين لتربيتهم تربية إيمانية. ويقول الله ﷻ فيما ستتحول إليه هذه الجهود المباركة في نهاية المطاف إلى سعادة أخروية:

﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾[١٦٠]

١٦٠ الطور، ٢١.

هؤلاء المؤمنون الذين فازوا بالألطاف الإلهية سيجتمعون مع أهليهم وذرياتهم وأتباعهم المؤمنين في الآخرة فيكونون معًا. فهذا لطف استثنائي منحهم الله سبحانه وتعالى إياه لينعموا بالعيش مع أولادهم في جنات النعيم بوئام وسلام. وبذلك تكتمل سعادة الآباء والأمهات وفرحتهم أيضًا.

فهذه هي طريقة الوصول إلى الألطاف الإلهية، والتي تعبر عن طريق تربية أولادنا وأجيالنا في إقليم القرآن والسنة. ولتجنب "إسراف وتضييع الإنسان" الذي يأتي على رأس أهم الإسرافات فعلينا القيام بواجباتنا والتزاماتنا تجاه أبنائنا وهذه هي مسؤوليتنا الأخروية جميعًا.

فعندما يتم اتخاذ المعايير التي حددناها - من جميع أشكال الإسراف الذي تطرقنا إليها فيما سبق - كمقياس، فيقوم أحدنا بتحليل جميع الأنشطة الحيوية في حياته وفقها، فحينئذ يظهر مدى شمولية مفهوم "الإسراف" لكل جوانب حياتنا. بل هي حقيقة أن هناك العديد من مظاهر

الإسراف التي تظهر في الوجود في كل مشهد تقريبا بدءًا من البغض والمحبة بشكل مفرط وانتهاء بمظاهر الترف في الاحتفالات والولائم والمهرجانات. فنحن حاولنا فقط إعطاء التدابير اللازمة على عدد قليل من المواقف الأساسية بغية الوصول إلى الوجهة الصحيحة.

ولكن يجب ألا ننسى أن علينا توسيع نطاق ما حاولنا أن نقدمه هنا كمعيار ومقياس في الإسراف دون حصره في هذه الأمور فقط، بل ليشمل جميع الأنشطة الحيوية حتى نتجنب بذلك الإسراف والبخل.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لنعيش حياة عبودية كما يرضاها، وأن يحفظنا من الوقوع في الإفراط والتفريط والسرف في كل شيء. وأن يرزقنا الاعتدال في التصرف في نعمه، وأن يوفقنا لأداء شكرها كما ينبغي.

آمين !...



فهرس





دار الأرقم
للنشريات والمطبوعات

كتب إسلامية مجاناً

يمكنكم الآن تحميل حوالي ١١٨٠ من الكتب الإسلامية بـ ٥٤ لغة من الإنترنت مجاناً

كتب إسلامية بلغات مختلفة وبصيغة pdf جاهزة للتحميل من موقع www.islamicpublishing.org
تستطيع الآن طباعة النسخ بصيغة الـ pdf أو تحميلها على الحاسوب وإرسالها لأصدقائك عبر البريد الإلكتروني.

الإنكليزية - الفرنسية - الإسبانية - الروسية - الإيطالية - البرتغالية - الألمانية - الألبانية - العبرية - الأذرية - البلغارية - البنغالية - البوسنية - الهنغارية - الصينية
التترية القرم - اليونانية - الجورجية - الهندية - الألمانية اليوربا - المجرية - الإندونيسية - الكازاخستانية - التترية قازان - القرقيزية - اللتوانية - ليتوانيا - الرومانية
السنهالية التركية - الماليزية - الرومانية - المنغولية - النرويجية - التركمانية - الأيغورية - الصومالية - الطاجكية - الأمهرية - الصينية التقليدية - الكورية
الأوكرانية - الأوردية - الأوزبكية - اليوروبا - الزرمية - الأورومية - الفارسية - الأرمنية - السلوفينية - الكردية - اليابانية - البولندية - تلغو



دار الأرقم | islamicpublishing.org